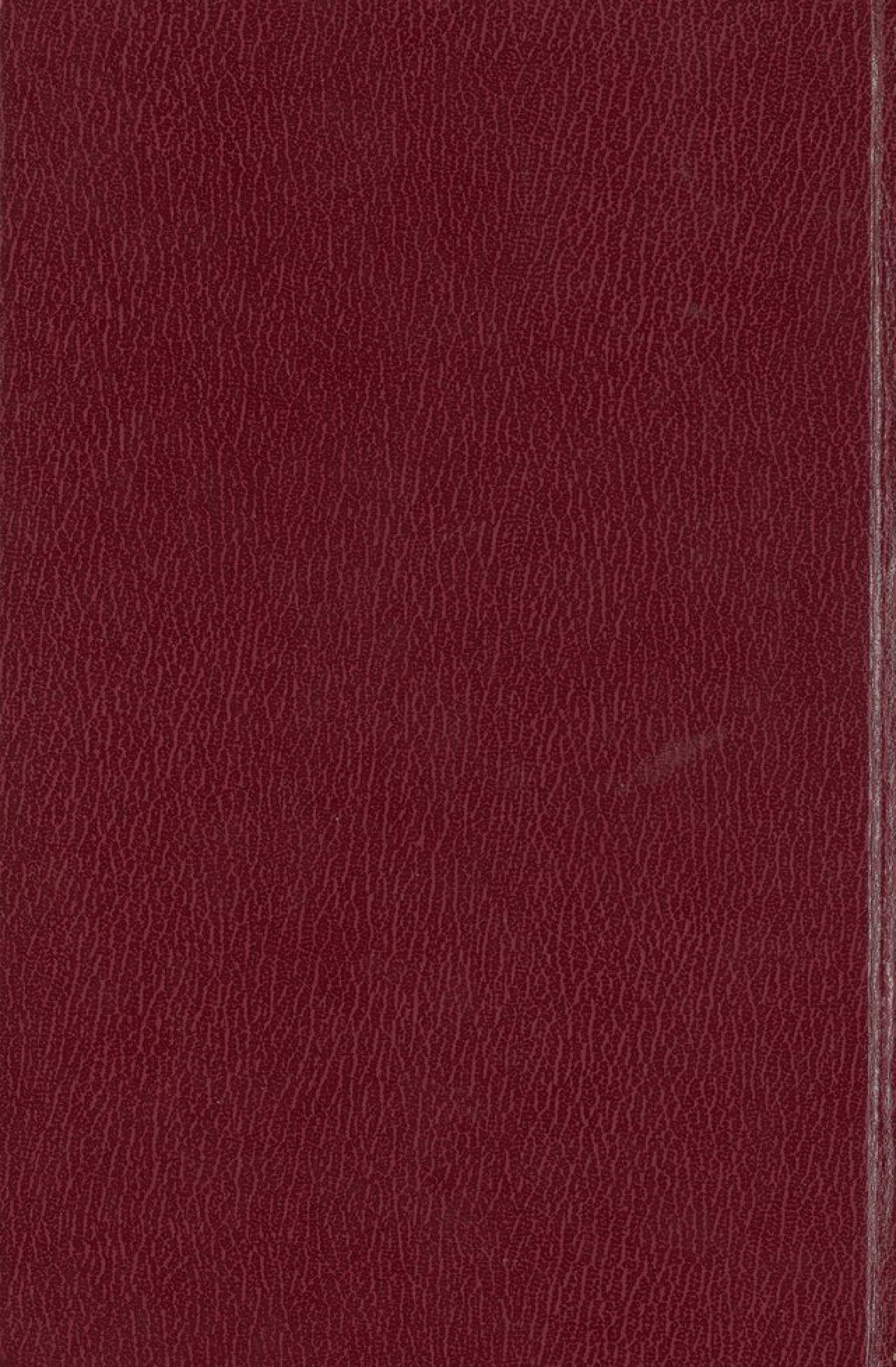


نسيب الاختيار

معالم الموسيقى العربية

الناشر: المكتبة العصرية - صيدا وبيروت

المطبعة العصرية
للطباعة والنشر

١٩٥٣

العصر الجاهلي

تطل الموسيقى على الانسانية من اعمق اغوار التاريخ ، وهي مجهولة الاصل ، فقد قيل ان الانسان غني قبل أن يتكلم ، بحيث عبر عن مشاعره بالانغام قبل أن يعبر عنها بالكلام ، ومهما كان شأن تاريخ هذا الفن الجميل ، فالامر الجدير بالملاحظة ، أن الموسيقي تتصل بنشاط الانسان الاول ، انتقلت من شعب إلى شعب ومن قطر إلى قطر ، وهي تسير من حسن إلى أحسن ومن سام إلى اسمى ، انتقلت من العبرانيين إلى المصريين ، ومن المصريين إلى اليونان ، ومن اليونان إلى الرومان ، وقبل هذا التاريخ ، سارت الموسيقى في موكب الكلدانيين والاشوريين والفينيقيين ، وغيرهم من شعوب العصور الغابرة ، وهكذا نلاحظ أن الموسيقى قديمة قدم الانسان نفسه ، شأنها في ذلك شأن كل شيء يرتـــد إلى أصل عميق الجذور في تاريخ الحياة الانسانية ، ونحن كلما عدنا بانفسنا إلى أقصى آماد عالم الموسيقى ، نلاحظ أن الموسيقى لدى الشعوب القديمة ، صفات غريزية مشتركة ، صفات تتجلى لنا في البساطة والايقاع العنيف والطابع الديني ، وبالرغم من هذه الصفات ذات السمة المشتركة ، فقد كانت الموسيقي تأخذ لنفسها في انطلاقها المتلاحق المستمر ، الصفات العقلية والنفسية لكل شعب ، تأخذ لنفسها هذه الصفات ، لتلتقي في الغاية القصوى غاية التعبير عن الاحساس في الحان .

غير أن الموسيقى حينما أطلت على الحياة الدنيا ، لم تطل عليها وهي قائمة بذاتها مستقلة بنفسها ، اطلت وهي مزيج مركب ، من غناء ورقص وشعر ، وكانت هذه الفنون الجميلة الثلاثة ، تؤلف كلا موحدا ، بحيث كان من الصعب العسير معرفة ما إذا كانت الموسيقى او الرقص او الشعر هو أصل سائر الفنون الجميلة ، أو انها ترعرعت معها في مهد واحد ودرجت واياها فوق صعيد واحد ، ومهما يكن الامر فقد كانت الطبيعة معلم الانسان الاول ، فلما الانسان العاصفة في صخبة وثورته ، والجدول الرقراق في سكونه وهدأته ، كانت الموسيقى بالنسبة له الاداة التي يعبر بها عن مشاعره المختلفة وحالات وجدانه المتباينة ، عبر عن عواطف القلب – بالالحان الغزلية ، وعن ورعه وعبادته بالتراتيل الدينية ، وعن احزانه ومآسيه بالانغام المأتمية ، وعن زهوة حماسته الوطنية بالاناشيد

القومية . ولم تكن الفنون الجميلة في كلها الموحد ، تمثل الفن الراقي العظيم ، الفن المبدع الملهم في الشكل والمحتوى ، وانما كانت بدائية بسيطة ، تتجاوب مع طبيعة الرقي العقلي والروحي للعصر الذي ظهرت فيه ، فالانسان القديم ، هذا الانسان الذي كان وما زال ، يمور صدره بفيض نشاط حيوي ، كان بحاجة قصوى لانفاق هذا النشاط ، كان يلهو وكان يعبث ، ومن هذا العبث وذاك اللهو ، ولد الفن ، كان هذا اللعب لعبا مثمراً نافعا ، كان هذا اللعب (حراً يقوم به الخيال والعقل معاً) كما يقول « كانت » ، وكان هذا اللعب (لعباً سامياً يعزينا عن احزان الحياة) كما يذهب إلى ذلك — « شوبنهور » وكان هذا اللعب (فيض عواطف مضطرمة) كما يرى « كيو » ومع هذا فقد استطاع الانسان بفضل هذا اللعب ، أن يمنح الحياة اسمى قوة ابداعية .

كان الانسان القديم يغني ويرقص وينظم في وقت واحد ، فقد كانت الموسيقى في الزمن الماضي ، مثل الرقص ، حركة لا أقل ولا أكثر ، ومن هنـــا عرف الاقدمون الموسيقى بقولهم « فن الحركات المنسجمـــة » وقالوا « الغناء والرقص توأمان » وما يقال عن الموسيقى والرقص ، يقال أيضا عن الموسيقي والشعر ، فقد كان الاقدمون يرتلون القصائد في مختلف المواسم والاعياد ، وكانت قصائد «هومر» تعزف على المزهر ، وتجلت الوحدة العميقة القائمة بين الموسيقى والغناء في الفنون الاغريقية ، إذ كانت الموسيقى والغناء اليونانية مسيرة باحكام الوزن الشعري ، كما كانت قويه الصلة بتقاطيع البيت الشعري ، ولم تنفصل هذه الفنون الجميلة الثلاثة عن بعضها بعضا الا بعد أن مرت في مراحل تاريخية معينة ، استدعاها تطور الانسان اللامتناهي .

إلى جانب هذه الصلة العريقة القائمـــة بين الموسيقي والرقص والشعر ، كانت هنالك صلة وثيقة بين الموسيقى والدين ، وقـد ذهب بعض المؤرخين الى القول : ان الدين هو أصل الموسيقى فقالوا (ان الانبياء والرسل والقديسين كانوا يتلقون الوحي على الايقاع الموسيقي) بحيث كانت الانغام تنساب مع تموجات الالهـــام ، واستشهدوا على ذلك بلوحة فنيـــة من لوحات القرن التاسع ، تمثل صورة الروح القدس على شكل طائر جميل يردد اغنية سماوية في اذن البابا ، وذهب «بول ماسون اورسيل » الى القول (ان الاناشيد التي كانت تمجد آلهة كل شعب ، كانت جزءاً

لا يتجزأ من الاداب الدينية)، وكان القدامى حينما يصورون الالهة يصورونها وهي محاطة بفرقة موسيقية .

ولعل اظهر ناحية من نواحي الصلة الوثيقة القائمة بين الموسيقى والدين ، هي تلك الصفة الشعرية التي تحلت بها الكتب الدينية ، بحيث ان اسلوبها كان موقعا ايقاعا غنائيا فيه جرس وفيه تناغم .

ولكن الانسان ، هذا المخلوق الذي قضت عليه سنة الحياة ، بان يكافح ويجاهد كان لا يقضي معظم اوقاته في سدرة احلام المنتهى ، كان عليه ان يعمل ليعيش ، وان يستخدم الفكر لمعاشه ، وفي غمرة العمل الشاق المرهق ، في لفحة الهجير ولسعة البرد القارس المرير ، كان يمضي وهو يجر وراءه الحياة ، يجر الايام والليالي ، مثقلة بالهم رازحة بالغم ، يمضي وهو يتطلع دائما وأبداً ، إلى فجر الخلاص ، وعلى فحيح سوط القدر ، كان يردد الانغام ، لا لينعم بالشدو ، بل ليطوي الحياة في أقصر وقت مستطاع ، كان اولئك الذين يمارسون المهن اليدوية الفردية ، في الزمن القديم ، ينشدون وهم يعملون ، يرتلون وهم يكدحون ، كانوا يفعلون ذلك لينسوا وجودهم فى دنيا تأخذ اكثر مما تعطي ، وتسلب اكثر مما تمنح ، كانت انغامهم حركة ، حركة تتجاوب مع طبيعة حركة المهنة ، شأن البحار والنجار والحداد والحصاد وغيرهم من مادة المجتمع الاولية .

وهكذا رافقت الموسيقى حياة الانسان في مختلف الادوار ومتباين المراحل ، سواء أكان ذلك في تصوراته العقلية ام في حياته اليومية أم في أحلامه الغيبية .

* * *

خلدت معظم الشعوب القديمة حياتها الفنية فيما خلفت من آثار ، فعبرت هذه هذه الآثار بصورة صادقة واضحة عن تصورات هذه الشعوب وهواجس احلامها ونزوات اوهامها ، فنحن بفضل الاثار المصرية تمكنا من معرفة دنيا موسيقى الشعب المصري ، اذ كانت هذه الدنيا مقدسة ، لها حرمتها ولها مكانتها ، كانت جزءاً من الاداب الدينية ، فقد كان المصريون القدماء يعتقدون بان الميت يبعث في قبره ، وانه يقضي حياة تحت الارض نظير الحياة التي عاشها فوق الارض ، فوضعوا الى

جانب الميت القوت الضروري له،مع آلة موسيقية، فيما اذا كان يعزف علـى آلة موسيقية ، وفي الهياكل والمعابد قامت لوحات فنية ، لوحات تصور طائفـة من العازفين والعازفات ، هذا يضرب على (هارب) وآخر على (كيتار) وثالثة على (لوت) ، وبفضل هذه اللوحات ، عرفنا الآلات الموسيقية التي كان يستعملهـا الشعب المصري ، كما عرفنا مدى تطوره الفني ، وما يقـال عن الشعب المصري ، يقال ايضا عن الشعب الاغريقي والروماني ، اما الشعب العربي ، فلم يترك لنا شيئا من هذا القبيل ، لم يخلف اثراً ينطق بما كان له من آلة موسيقية وما كان له من فن، كان هذا الشعب بدويا رحالة جواب آفـاق ، لا يقتني الاشياء التي تربطـه بالارض ولا يبتكر الاشياء التي توثقه بالارض ، فلم يترك خلفه ، ما يشير الى ما كان عليـه من مدنية وحضارة، كانت الذاكرة كل شيء عنده،يتوارث بالسماع فنونه وآدابه، فمن الاذن الى اللسان ، ومن اللسان الى الضياع والنسيان . وهكذا فقدت معظم مبتكرات العربي في الجاهلية ، وما تحدر الى العصر الذي جاء عقب العصر الجاهلي، تحدر ناقصا مبتوراً ومشوها ممسوخا ، لا يمكن الركون اليـــه ولا الاعتماد عليه ، الامر الذي جعل المؤرخ في وضع لا يحيط لا بمدى الحياة الفنية للعربي في الجاهلية فحسب بل بمدى تأثره بحضارات الامم المجاورة له ايضاً ، ولكن هذا الوضع الذي كان عليـه العرب في الزمن الجاهلي ، لم يحل بينهم وبـين الاتصال بمدنيات الامم المجاورة لهم ، فقد كانوا يقومون برحلات، رحلة في الصيف ورحلة في الشتاء ، الامر الذي افضى بهم ، الى التعرف على حضارات واشجة في القدم ، وان كان اثر هذه الحضارة ، لم يتجل في حياتهم الخاصة والعامة ، الا بعد حقبة من الزمن ، فقد ادى اتصال العرب بالامم المجاورة لهم ، الى اشياء كان لها اثرها البعيد ، في تاريخ الغناء العربي ، فقد تعلم الحارث بن كلدة ، خلال زيارته للحيرة ، الضرب على العود والغناء عليه ، ونقل ما تعلمه الى مكة المكرمة ، حيث علم اهلهـا ، القيان ، الضرب عـلى العود والغناء عليه ، وتعرف العرب ، بفضل تلك الرحلات ، على انماط جديدة من الغناء العربي،على انماط لا مثيل لهـا ولا نظير في تلك الصحراء المنطوية عـلى نفسها والمستغرقة في ذاتها ، فقد حضر حسان بن ثابت ، مجلساً غنائيا من مجالس جبلة بن

الايم في الشام ، وغنت في هذا المجلس عشر قيان ، خمس غناء اهل الحيرة ، وخمس غناء الروم ، وهكذا نلاحظ ان العرب في الزمن الجاهلي ما كانوا في عزلة تامة عن سير الحضارة في البلدان المجاورة لهم ، بل كانوا على اتصال بهذه الحضارة، وقد ذهب المستشرق « فامر » الى أبعد من هذا الحد، اذ قال : ان اتصال العرب بالامم المجاورة لهم يرجع الى عهد بعيد في تاريخ الانسانية، فمنذ الالوف المؤلفة من السنين، كان العرب على اتصال وثيق بحضارة الآشوريين والفنيقيين والعبرانيين وان تشابها قديما ، كان قائما بين ثقافة الشعوب السامية ، لا سيما فيما يتصل بالحياة الغيبية ، حيث تلعب الموسيقى اروع دور، حتى ان اسماء الآلات الموسيقية عند العرب ، اشتقت من اسماء الآلات الموسيقية لدى الشعوب السامية ، مثل (الطبل والزمر) وما الى ذلك . ومهما تكن وجهة نظر المستشرق « فارمر » فالامر الجديد بالملاحظة هو ان الذي تحدر الينا ، من موسيقى العرب في الزمن الجاهلي ، كان محدود الافق ضيق النطاق، فقد عزف العرب، على القصب واليراع والمزامير والاوتار وضربوا بالدف، وناسبوا كما يقول ابن خلدون بين النغمات (مناسبة بسيطه يدركها الطبع بدون تعليم شأن البسائط كلها من الصنائع) ولم تكن الموسيقى عندهم ، تعني ما عنته لدى الاغريق ، فتضم هذه الكلمة في تضاعيفها (الشعر والرقص والفلسفة والبلاغة وفقه اللغة والرياضيات) اي ما أطلق عليـــه في القرن الثامن عشر اسم « العلوم السبعة الحرة » ، وانما كانت الموسيقى في الشعر الجاهلي ، لا تعـدو الترنم بالشعر ، فقد اعتبر العرب ، الترنم بالشعر غناء ، اما الآلات الموسيقية ، فما كان لها اثرهـــا البارز في تاريخ الموسيقى العربية في العصر الجاهـلي ، اذ كان عربي ذاك الزمن ، يؤثر سماع الغناء الصوتي ، على العزف الآلي ، ليتسنى له بذلك تذوق معاني الشعر ، تذوقا صافيا مجرداً ، اما الآلة الموسيقية ، فلا مهمة لهـــا الا مرافقة الغناء الصوتي والتمهيد له ، وهكذا قامت عناصر الموسيقي عند العربي عـــلى الشعر وحده ، في الوقت الذي قامت فيه عناصر الموسيقى عند الافريقي على التراجيدي .

ولكن هذا التفاوت في مقومات الموسيقى عند العرب والاغريق ، انما يرتد الى

الوضع الجغرافي للجزيرة العربية ، فالتراجيدي لا تنبث في ارض قاحلة جرداء بين ظهراني قبائل متنقلة جوابة ، لا شيء يربطها بالارض ، وانما تنبت في رقعة توطدت فيها الحضارة والقت بظلالها على كل ما حولها ، واذا كان هذا الوضع الجغرافي ، هو المسؤول ، الى حد ما ، عن هذه النتيجة ، فان هذا الوضع ، هو المسؤول ايضا ، عن أتسام الغناء العربي ، بميسم التفريد، فقد قضت طبيعة هذه الرقعة القاحلة الجرداء والمفازة المترامية الارجاء ، حيث الدنيا شواظ من لهب ، قضت على العربي ان يعيش ، لا انيس له في ترحاله غير ناقته ، يبثها نجواه ويودعها شكواه ، ولا ظل له في حله ، غير خيمة نائية أونخلة قاصيه، في هذا الهدوء الكامل والسكون الشامل ، كان العربي يعكف على نفسه ويستغرق في تأملاته ، حتى اذا جاشت خواطره ، رجع ما يضطرب في قلبه ، رجع ذلك على نغم شجي حزين ، فيه عمق الصحراء وامتداد الصحراء ، كان يعيش وحيداً في دنياه ، وحيداً في ذلك العالم الرحب ، فاتسمت انغامه التي اودعها احساسه المرهف ، بالوحدة ، الوحدة اللامتناهية في تلاشيها الحالم ، كان يترنم ، ولا انسان يترنم الى جانبه .

كان ينشد ولا احد ينشد معه وحيداً في حله وترحاله ، وحيداً في همس الشكوى وبث النجوى ،في رقعة متجاوبة الارجاء، بفحيح الهجير ولفح الرمضاء ، على حين ان طبيعة البلاد المعتدلة او الباردة ، قضت على أولئك الذين يعيشون بين ظهرانيها بحياة مشتركة ،اذا غنوا ،غنوا معا ،واذا رتلوا ،رتلوا معا. فاذا اضفنا الى ذلك ،النفسية الرومانتيكية لطبيعة الشخصية العربية ، هذه النفسية التي تغلب عليها الصفة الفردية ادركنا الاسباب التي ادت ، الى غلبة غناء التفريد ، على غناء المجموعة . ولا ريب ان كل عنصر وكل وسط له اثر في طبيعة الموسيقى حيث يتجلى هذا الاثر في الالحان والانغام ، وقد كان لهذين العاملين — العصر والوسط اثرهما في تحديد آفاق الموسيقى العربية في الزمن الجاهلي ، كان الفكر العربي خلال هذا الزمن ، فكرا تعوزه المعاني ، لافتقاره الى حضارة يستمد منها القيم والمثل والمفاهيم ، فكانت الحانه بسيطة سهلة لا تحمل في تضاعيفها المعاني الزاخرة بالحياة ، لان المعاني الموفورة لا تنبجس الا في حضارة موفورة ، والحضارة هي صنع يد الانسان ولا شيء مثل هذا الصنع في صحراء جزيرة العرب ، ولكن هذه (المناسبة البسيطة) البساطة التي

رافقت الموسيقي العربية في العهد الجاهلي ، كانت من القوة بمكان ، اذ كانت تتجاوب تجاوبا صادقا واقعياً، مع مشاعر العربي وعواطفه ، ومن هذه الصورة الحقة الصادقة انبثق جمال الفن الجاهلي ، كان الفنان في الزمن الجاهلي اذا غني يعرب في غنائه عما يجيش في صدره ، ويضطرب في قلبه ، واذا لم تكن للموسيقى عنده اوابد ، فقد كان هو نفسه رمزها الحي، كان رومانتيكياني طبيعته ، فاودع السماء انغامه ، وارسلها في الاجواء ، متموجة متراقصة ، على موجات السراب وتراقصه ، ومتهادية مترنحة ، على تهادي وترنح النسائم في الواحات المشرقة ، وكان هذا العربي الجاهلي ، البسيط الساذج ، يعرف ما للموسيقى من اثر نفسي ، فقد كانت المرأة العربية لا تدع ابنها ينام الا على غناء، لئلا يسري الهم والحزن اليه ، وكان هذا العربي الجاهلي،اذا اراد التقرب الى الملوك، تقرب اليهم بقينه ، فقد قدم مالك وعقيل ابنا فالج ، هدية لجذيمة الابرش ، وكانت هذه الهدية قينة تدعى «ام عمرو» في تلك الرقعة المترامية الارجاء ، كان العربي يمضي وحيداً فريداً ، لا أنيس ولا سمير ، وعلى وقع مناسم الابل ، كان يحدو ، وفي هدأة عميقة مديدة ، ينساب الحداء ، دون ان تردد الصحراء ، لحداه صدى .

• • •

يقول بعض المؤرخين العرب،ان الحداء اصل الغناء،وان مضر بن نزار بن معد، هو واضع اصل الغناء، فقد سقط عن بعير له في بعض اسفاره،فانكسرت يده فجعل يقول : وايداه ، وايداه . وكا من احسن الناس صوتا، فاستأنست الابل وطاب لها المسير ، فاتخذ العرب حداء برجز الشعر وجعلوا كلامه اول الحداء من قول الحادي :

يا هاديا يا هاديا وايا يداه ، يا يداه

وهكذا كان الحداء اول السماع والترجيع عند العرب ، ثم اشتق الغناء من الحداء .

ان هذه القصة التي ترويها الكتب الادبية العربية القديمة ، اقرب الى الاسطورة منها الى الواقع ، فالغناء هذا الفن القديم ، كان قائما في جزيرة العرب قبل مضر بن نزار ، كانت الامة العربية في الجاهلية ، امة وثنية ، وكان لهذه الوثنية طقوسها

وعباداتها ، و كان الغناء ظاهرة طبيعية ، مـن ظواهر الآداب الدينية في العقيدة الوثنية ، لان الاديان في الزمن القديم ، كانت عبارة عن طقوس اكثر منها معرفة ولما اصبحت المعرفة دعامة الاديان ، اخذت الطقوس لنفسها صفة رمزية ، فالعربي الذي يقدس آلهته المحلية او المشتركة ، كان يتقرب الى هـــذه الآلهة بالاناشيد والتراتيل ، انه كان يفعل ذلك منذ اليوم الذي حمل فيــه (عمر بن لحي) صنم (هبل) من بلاد الشام الى مكة ، و كان للعرب (الطواغيت) ويقول ابن هشام في سيرته ان العرب كانوا يعظمون بيوت الطواغيت كتعظيم الكعبة (لها سدنة وحجاب تهدى اليها كما تهدى الكعبة وتطوف بها كطوافها بهـــا وتنحر عندها) و كان العربي قبل اعتناقه الوثنية ، وبعد وثنيته نظير غيره من الشعوب البدائية ، اله قوى الطبيعة ومجد عناصرها ، وتقرب اليها بصلواته وعباداته ، و كانت هـذه الالهة ، قاسية جبارة ، فكانت الصلوات كما كانت العبادات ، ضراعة وجدانية ، فيها الشيء الكثير من الاستعطاف والشيء الكثير من الاستجداء ، و كان العربي مثل غيره من ابناء الاجيال الخالية ، اجيال الاوهام والاحلام ، يعتقـد بان عناصر شريرة تحل جسده فتقض راحته وتحرق حياته ، فكان يلجأ الى الكهان والعرافين ، علّه يجد لديهم البرء والشفاء ، فيطردوا العناصر الشريرة التي حلت فيه ، ونحن نعلم ان جزيرة العرب ، كانت تزخر في زمن الجاهلية ، بامثـال هؤلاء الكهان والعرافين مثل (سطيح وشق) وغيرهما ، و كان الكهان - والعرافون ، يرددون التعاويذ بصوت مرتل و كان يصحب هذا الصوت المرتل - كما هو الحـــال لدى بعض الشعوب البدائية - ضرب على الآلات الموسيقية المعروفـــة في ذلك الزمن ، فأين ذهبت هـــذه الموسيقى ؟ واين تبددت معالم ذاك الغناء ؟ وهل عاش العرب حياتهم الاولى ، على خلاف حياة بقية الشعوب التي كانت مثلهم في البداوة والوثنية؟

لقد عاش العرب ، كما عاش غيرهم من الناس ، كانت لهم عقيدة ، و كان لهذه العقيدة طقوسها المقررة ، و كانت توافق هذه الطقوس موسيقى ، موسيقى صوتية وغير صوتية ، موسقى كانت تنتهي بالوثنيين الى ضرب من الهوس الصارخ ، هذا الهوس الذي عرف في القديم لدى (الافروجيين) و كان النواة الاولى للاحوال والمواجيد . ونحن اذ القينا نظرة عامة على الكتب التي وضعت عن طقوس العبادة

الوثنية في العصر الجاهلي، نلاحظ ان العرب في هذا العصر، كانوا يؤدون عباداتهم على ضرب غنائي بدائي، فقد كانت صلاة العرب عند البيت الحرام (مكاء وتصدية) يطوفون وهم عراة يصفرون ويصفقون، كما ان العذارى كانت ترقص حول الاصنام رقصة (الدوار)، وقد اشار امرؤ القيس الى هذا الضرب من الرقص الديني حينما قال :

فعنّ لنا سرب كأن نعاجه عذارى «دوار» في ملاء مذبك

وما يقال عن رقصة «الدوار» الدينية يقال ايضا عن رقصة نساء بني دوس حول صنم ذي الخلصة، فاذا اضفنا الى ذلك التلبية، هذا الابتهال المسجع الذي وضع على نحو موسيقي، ادركنا صلة الموسيقي بالطقوس الدينية العربية في العصر الجاهلي.

من كل هذا يتضح لنا ان الدعوى القائلة، بان الحداء هو اصل الغناء عند العرب دعوى لا تقوم على اساس من الصحة، لان الحداء ليس هو في الحقيقة غير ضرب من ضروب الغناء العربي، ولون من الوان الاغاني المهنية، فاذا غنى الانسان قبل ان يتكلم، كما يقال، كان معنى ذلك، ان اصول الغناء مهما كانت بسيطة وما كانت ساذجة، كانت معروفة لدى العربي منذ القديم، والعربي مثل غيره من الناس له اذنه، ولهذا الاذن قانونها الخاص، فهي تجتوي الصوت الذي لا يخضع لقانون مرصود، تجتوي الغناء الذي لا اصول له، فهي اذ تصغي الى اناشيد الحادي، لتضع من الحداء اصول الغناء، كانت تصغي الى اصوات اخرى، الى اصوات عرفت في التاريخ، قبل صوت مضر بن نزار.

ان العربي هذا الكائن الحي الوجداني بطبيعته النفسية، عاش مرهف الحس في في مختلف مظاهر حياته الروحية والمادية، وقد اراق هذا الحس المرهف، على اناشيد حزينة شجية في حين، وثائرة متمردة في حين آخر، ولكن هذه الاناشيد فقدت وضاعت، في ارض العراء، الارض التي ما ابقت على رسم، اما التاريخ فلا يحدثنا الا عن (الجرادتين) اللتين كانتا في حوزة عبد الله بن جدعان، كما ان التاريخ لا يحدثنا الا عن غناء (النصب)، هذا الغناء الذي كان على ثلاثة اجناس (السناد الخفيف والسناد الثقيل والهزج)، والذي انقرض وذهب

ابادید دون ان نعرف عنه شيئاً . اما المجالس الغنائية ، فقد كانت مقتصرة على الدور والمنازل والخيام والاسواق التجاريه الموسمية كسوق عكاظ وقليب بدر ، وما اليها ، ففي هذه الاسواق ، كانت القيـان تغني وكان الرجال يشربون ويطربون .

• • •

كانت الحرب بالنسبة للعربي ضرورة حيوية لا بد منها ولاغنى عنها ، فالارض القاحلة الجرداء التي يعيش فوقها ، مـا كان في مقدورها ، ان تؤمن له حياة آمنة مستقرة ، حيـاة يجد فيها الغذاء والكساء ، فهو لا جـل غدير او مرعى كلأ صغير ، يقاتل ويكافح ، لا بل انه كان لا يتورع عن اغتصاب مـا يحوزه غيره من غنم وابل وخيل ومتاع ... كان يفعل ذلك ليؤمن بالغزو معاشه ، فالحرب عند العربي ، حاجة طبيعية ، حاجة استدعتها سنة البقاء وارادة الحياة ، هو لا يحارب لينفق قوة النشاط المتوفرة لديه ، بل ليضمن ما ينقصه ويظفر بمـا يعوزه ، ومن القيم المادية انبثقت عند العربي القيم المعنوية ، فاتسمت كل حاجة من حاجاته ، بسمة مثلى ، فالحرب هذه الضرورة المادية المطلقة ، اصبحت فكرة رفيعة سامية ، فكرة لها ميزاتها وفضائلها ، وهكذا تحت تأثير الاوضاع الطبيعية لدنيا العربي ، اصبحت الحرب معزوفة الحياة فهو يتغنى بالشجاعة ويشيد بالاقدام ويتباهى بالجرأة ، لان هذه الاشياء جملة ، دعامة حياته الفردية والقبلية .

في غمرة النضال لاجل البقاء ، كانت تلد قصائد الحماسة والفخر ، وكانت هـذه القصائد ترتل وتغني ، ان الفارس العربي الذي يخوض غمرات المعارك ، كان يندفع وقد تملكه هوس جارف ، كان في حمى هذا الهوس ، ينشد لحنا مشتركا ، ترافقه زغاريد النساء في حين ، وقرع الطبول والدفوف في حين آخر ، وكان هذا الفارس اذ يؤوب من المعركة ، وقد عقدت على هامته أكاليل النصر ، يستقبل بالاناشيد المدوية ، اناشيد تعدد مناقب الفارس ومآثر القبيلة ، وفي زهوة الحماسة كانت تتصاعـد الانغام ، وهي تعبق باريج المجد والبطولة . ولكن هناك ، هنـاك في بعض الخباء ، كان يرنق مأتم ، ام فقدت وحيدها او زوجة خسرت معيلها ، في هـذه الاخبية

الخابية الانوار كانت حسرات وكانت زفرات ، ومن هذه وتلك ، كانت تتفجر الحان شجية حزينة ، الحان المآتم .

ولكن الزمن لا يلبث ان يطرى الايام في سجله الابدي ، فتشرق في الافق شمس جديدة ، شمس زاهية ضاحكة ، تحمل معها ارادة البقاء في صورة حب لا في صورة حرب ، هنا يتوارى شبح (مارس) ليطل طيف (كوبيد) ، هنا تغمر كل شيء ، البسمه الناعمة والنظرة الحالمة ، فتورق الحياة وتشع ، واذ بتلك الواحات تتألق بأنوار عاشقين متيمين ، في هذه الساعات الالهيـــة ، ساعات همس الشكوى وبث النجوى ، تجيش الخواطر بانبل الافكار والمشاعر ، فيغني العاشق، يغني شعره ان كان شاعرا ، او شعر غيره ان لم يؤت موهبة نظم الشعر ، اما اولئك الذين لا ينظمون ولا يغردون، فلا يحبون ولن يحبوا .

من ذا الذي لم يقرأ قصة (دارة جلجل) هذه القصة التي تحدثنا عن امرىء القيس وهو يغني شعره لابنة عمه (عنيزة) ؟

لقد احب الشاعر ، حباً سكب فيه شعره في نغم ، هكـذا كان حب معظم الشعراء ، كان شعرهم لحنا . لحنا يرتلونه ونغما يرددونه . ولكن الحب هذا الولد الجبار المقتدر ، ما كان دائماً ابداً بالكائن الامين الوفي ، كانت له نزواتـه القاسية المرة ينطلق ويمضي دون ان يلقي نظرة على تلك القلوب المعذبة، هنا يقف العاشق ليندب حظه العاثر، ليبكي الايام الحلوة العابرة، الايام التي نعم فيها بدفء الحب وحرارته حيث الدنيا ربيع والعمر زهر، هنا يقف العاشق وقد احتواه حزن يتيم حزن ، انسان نفض يده من كل شيء. ومن الاعماق تصدر آهات، تصدر وهي تتموج علي ايقاع شجي فتحملها الاصداء نغما شعريا، نغما تألفت منـه التحف الفنية الخالدة .

وهكذا كان الشعر مادة الغناء عند العرب ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم مـن شعوب الارض وكانت الصلة بين الشعر والغناء قوية وثيقة كانت الحان العربي في الجاهلية سهلة بسيطة ، وكانت هذه الالحان سهلة بسيطة توقع بتعداد معين بتجارب مع مقاطع البيت الشعري اما الاوزان فقد كانت تضبط بالضرب عـلى الدف .

• • •

الغناء في صدر الاسلام

كان عهد صدر الاسلام ، عهد نضال لا هوادة فيه ولا لين معه ، نضال بين دعوة جديدة تريد ان تشق طريقها في هذه الحياة الدنيا ، وان تبدع لنفسها مكانا تحت الشمس ، وعقيدة قديمة رسخت في النفوس وتاصلت في القلوب ، فلم يكن والحالة هذه اي متسع للهوواى مجال لعبث ، كانت الدعوة الاسلامية دعوة هدامة انشائية ، هدامة للوثنية ، وما تشتمل عليه هذه الوثنية من طقوس وتقاليد وعادات وانشائية من حيث نزوعها الى اقامة دين جديد ، له قواعده الجديدة وانظمته الجديدة ، وكان لا بد والحالة هذه من نشوب معركة حامية بين هذا الدين الجديد في تصوره وتصويره لعالم الارض والسماء ، والدين القديم الذي كان يحرص اتباعه كل الحرص - لاسباب مادية ومعنوية - على حاضره ومستقبله ، وتراثه ، مهما كان اثر هذا التراث ، كان لا بد من نشوب معركة بين الفكرتين ، فيتغنى كل فريق بامجاده ويشيد كل جانب بمآثره ، ينصرف عن الغزل والتشبيب الى دعم العقيدة التي يؤمن بها ويأخذ باسبابها ، فالوثني في هذه الحقبة من الزمن ، كان يتغنى بدين آبائه واجداده ، كما كان يعد القصائد الهجائية المقذعة ، يتحى فيها باللائمة والتثريب على اولئك الذين تركوا الوثنية وهجروا دين الاباء والاجداد ، ويحض ابناء قومه على التنكيل بالذين آمنوا بالدين الجديد ، والمسلم في هذه الحقبة من الزمن ، كان يعتصم بالصبر ويلوذ بالجلد ، ويتوجه الى الله وفي القلب امل زاخر وايمان وافر . ولم يكن في مقدور كل مسلم ، في بدء انبثاق فجر الاسلام ، الجهر بما يعتقد به كان يصلي في خفية عن اعين المشركين ، يرتل القرآن ابان الصلوات وغير الصلوات ، بصوت ساكن خافت ، لئلا يسمعه المشركون ، فينال من اذاهم مالاطاقة لانسان بمثله ، ولم يجهر المسلمون بالصلاة الا بعد اسلام عمر بن الخطاب فقد دوت بطحاء مكة المكرمة ، بصوت بلال الحبشي ، فكان هذا الصوت اول صوت رددت اصداءه ارجاء البلاد المقدسة .

لقد كان هذا الصوت فاتحة عهد جديد في تاريخ الاسلام كان بوقا ينذر

المشركين بان الاسلام اصبح قوة وان الفكرة باتت حربة وان هذه الحربة لن تغمد وتلقى في الجعبة بعد اليوم، كان هذا الصوت امتدادا لعاطفة مكبوتة، لعاطفة ظلت سنوات طوال، وهي حبيسة سجينة، وهاهي ذي الان تتسامى الى الاذهان مدوية في اهاب نغم جميل . ان هذا الصوت الحلو الرخيم الذي ردده بلال الحبشي كان منارا التفت حوله قلوب المؤمنين فرددوا معه بصوت واحد شعار الدين الجديد هنا بلى هنا شعر المسلمون بوحدة عميقة شاملة تربط بين بعضهم بعضا وحدة احكم عراها صوت جميل ينادي (الله اكبر) .

وهكذا كان الغناء وسيلة من اكبر وسائل تحقيق التناغم بين المؤمنين، حيث تجلى هذا التناغم في غناء يصدر عن قلب واحد، ولسان واحد وقد ادركت الاديان القديمة اهمية هذه الناحية كل الادراك لا الديانة الوثنية فحسب بل الاديان السماوية ايضا، فقد منحت الديانة المسيحية الغناء مكانه عظمى فذهب القديس (جان كوريزوستوم) الى القول (ليست تراتيلنا غير صدى انها تقليد لتراتيل الملائكة واذا كان الانسان موسيقيا فذلك بالهام من الروح القدس) .

وكان الغناء في مستهل عهد المسيحية مقتصراً على ترتيل الكتاب المقدس كان يقوم بهذه المهمة قارىء خاص له مواهب صوتية معينه وكان جمهور المصلين يردد معه بين حين وآخر :

آمين . الحمد لله

ثم ما لبثت الكنيسة ان ادخلت الآلات الموسيقية على الصلوات، كما عمدت الى نظم قصائد غنائية تتغنى بامجاد السيدة العذراء والقديسين والشهداء، ولما بسطت المسيحيه سلطانها الفكري على رقاع العالم القديم، اخذت قسطا كبيراً من الموسيقى اليونانية والرومانية .

هكذا شان الغناء في العقيدة المسيحية (التراتيل تقليد لتراتيل الملائكة والموسيقى الهام من روح القدس) اما الاسلام فقد كانت نظرته الى الغناء غير هذه النظرة، ظهر الاسلام في جزيرة العرب ولم يكن غناء العربي في الجاهلية يعدو الحداء والنشيد ومادة شعر محدودة الالوان والاشكال، وكانت طبيعة الجزيرة

العربية ، طبيعة متجهمة قاسية الامر الذي اضفى على العربي طبيعة حاضرة ولم تكن في جزيرة العرب حضارة وارفة مثل حضارة اليونان والفرس والرومان حتى يزدهر الفن وينمو ويشع وتتأثر حياة العربي المادية والمعنوية بمظاهر الحضارة المختلفة حتى وثنية العربي كانت وثنية مجدبة قاحلة لا تنضح برواء ولا تستريح الى ظلال افياء، لم تكن فيها تلك (الميثولوجيا الفياضة بالرؤى والاحلام والتصورات وقد ظهر الاسلام في مثل هذه الرقعة من الارض ، ظهر وهو يحمل في تضاعيفه رقة وعذوبة وزهوة وقوة ظهر ليبدل عقلية ونفسية رقعـــة مترامية الاطراف ، فالتقى الوجه الجديد بالوجه القديم ، كان صوت الوجه الاول في مستهل عهـــده ، يتسامى الى الاذهان هامساً خافتا يرتل القرآن بصوت رقيق ناعم فيه ضراعة مؤمن يعذب ويضطهد ويتجه بكله الى الله، فلما اشتد ساعد الاسلام اخذت هذه الضراعة الوجدانية لنفسها صوتا آخر صوت الشكر شكر الله تعالى على ما افاءه على المؤمنين من نعمة وفضل اذ بدل خوفهم بأمن ، وضعفهم بقوة ، ولما خفقت راية الاسلام فوق جزيرة العرب ، استحال ذات الصوت ، صوت الشكر الى صوت ثقة ، ثقة بالله والاسلام ، ثقة انسان بات يعتقد بان المستقبل له . والتاريخ معه .

ومن خلال هذا كله ، كان صوت بلاد الحبشي يتعالى ، يتعالى داعيا المؤمنين الى الصلاة في هدأة الصبح وغفوة الغسق ، كان هذا الصوت الرخيم يدوي .

ولكن الى جانب هذا الصوت ، كان صوت آخر ، صوت الحرب ، كان هذا الصوت في صدر الاسلام متواصلا متلاحقا متتابعا ، فقد كان المشركون لا يدعون سانحة تمر الا انتهزوها لتوجيه الاذى للنبي وللمسلمين كانت طبول الحرب تقرع في كل وقت ، فمن غزوة الى غزوة ومن فتح الى فتح ، وصرح الاسلام يرتفع حجرا فوق حجر وسوراً فوق سور ومكن الله للاسلام في جزيرة العرب وشغل القرآن الناس عن كل شيء بات القرآن المثل الاعلى لكل مسلم ، يتلوه ويرتله اناء الليل واطراف النهار .

جعل الاسلام للحياة غاية ، وغاية مقدسة نبيلة ، بحيث ان الانسان لم يلد عبثا ولم ينشأ عبثا ، بل ولد ونشأ ليؤدي رسالة في هذه الحياة الدنيا .

وهذه الرسالة هي النضال لا ليعيش الانسان حيثما اتفق بل ليعيش كما يجب ،

ومن هنا انبثق فجر ثورة الاسلام ، فقد كان على هذا الدين الجديد، ان يحتل مكان عقيدة قديمة وان يبشر بمثل اعلى له قيمته وله مفاهيمه ، بين ظهراني شعب لا يؤمن بمثل هذا المثل ولا بقيمه ولا بمفاهيمه ، واذا انصرف الاسلام في مستهل عهده عن كل ما لا صلة له بحركته وفكرته ، فذلك لان هذه الفكرة وتلك الحركة ، كانتا كل شيء بالنسبة لدعوته ، ومع هذا فالاسلام في مثله الاعلى المنبثق عن الواقع ، لم يتخذ موقفا سلبيا مطلقا من الغناء ، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : دخل علي ابو بكر رضي الله عنه وعندي (جاريتان من جواري الانصار تغنيان) بما تقاولت به الانصار يوم (بعاث) فقــال ابو بكر : امزمار الشيطان في بيت رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا ابا بكر ان لكل قوم عيدا وهذا عيدنا .

وكان ذلك اليوم يوم عيد .

ودخل ابو بكر على عائشة في يوم من ايام منى ، وعندها جاريتان (تدفان وتضربان) والنبي صلى الله عليه وسلم متغش بثوبه ، فانتهرها ابوبكر فكشف النبي صلى الله عليه وسلم غطاءه وقال : دعهما يا ابا بكر فانها ايام عيد .

وروي عن عائشة رضي الله عنهـــا : كانت جارية من الانصار في حجري ، فزففتها فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسمع غناء فقال يا عائشة الا تبعثين معها من يغني فان هذا الحي من الانصار يحبون الغناء .

ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم احاديث جاء فيها (ما بعث الله نبيا الا حسن الصوت) وفي حديث آخر لله اشد اذنا الى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب القينة الى القينة ، وقال النبي في مـــدح ابي موسى الاشعري (لقد اعطي مزماراً من مزامير آل داوود) وروي عن زوج دره بنت ابي لهب قال: دخل علي الرسول صلى الله عليه وسلم حين تزوجت درة فقال هل من لهو ؟

واستقبل اهل المدينة النبي وهم ينشدون

طلع البـــدر علينا   من ثنيات الوداع

فلم ينكر النبي انشادهم.

وكان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم امرأة تغني تــدعى زينب ، قال جابر ابن عبدالله : تزوج بعض الانصار بعض اهل عائشة فاهدتها الى قباء .

قال الرسول : اهديت عروسك ؟

قال : نعم

قال : فارسلت معها بغناء ؟

قالت : لا

قال : فادركيها يا زينب .

وقـــد سمع الغناء من الصحابة ، عبدالله بن جعفر ، وابن الزبير ، والمغيرة بن شعبة ، ومعاوية بن ابي سفيان وغيرهم . ومر عمر بن الخطاب برجل يتغنى فقال :

ان الغناء زاد المسافر

واذن عمر بن الخطاب لرباح بن المعترف ان يغني اصحابه الذين كانوا معه في طريقه الى الحج، ليقصر عنهم الطريق والمسير ، وغنى رباح بن المعترف ايضا للحجاج وهم محرمون ، وكان من بينهم نفر كبير من الصحابة والتابعين والانصار .

وقيل ان ابا بكر نهى عن التعرض لنسوة كن يغنين ويطبلن في يوم عيد .

وكانت عند حسان بن ثابت شاعر النبي ، مولاة تدعى شيرين او سيرين هي استاذة عزة الميلاء .

وقد اعتبر التفليس (اي الضرب بالدف) من السنة فقد روي عن الشعبي قال : مر عياض الاشعري في يوم عيد فقال :

لا اراهم يقلسون فانه من السنة .

من كل هذا يتضح لنا ان الاسلام لم يقف من الغناء موقف المناهض له المتجني عليه، وهو اذ وقف ،هذا الموقف لم يقر الغناء الذي لا يتفق مع رسالته الاخلاقية والاجتماعية، واستمع النبي صلى الله عليه وسلم للغناء وامر باستماعه كما يقول النويري ولكن الغناء الذي عناه الغزالي بقوله (الذي لا يقصد منه الاخلال) فقد كان الناس ابان حفلات الزفاف يضربون بالدفوف والمزامير، وكان الناس خلال ايام الاعياد يستمعون الى الجواري وهن يغنين ويعزفن ، وكان الناس في هذا العصر يترغون بالشعر ويرجعون القراءات . كانت هناك اصوات وآلات ، دف ويراع وقصب واوتار، كانت كل هذه الاشياء قائمة موجودة ولكنها كانت مقيدة بوازع ديني عميق، بوازع يفرض وجوده ، فلا يستحب من السماع الا ما يحرك الصفات المحمودة .

العصر الاموي

كان العصر الاموي عصر انتقال من بداوة الى حضارة ، من حياة قاسية مريرة، الى حياة ناعمة غضة ندية ، فقد بسط العرب خلال العصر الاموي سلطانهم على معظم رقاع العالم القديم ، موئل الحضارات ومعقل المدنيات ، فتعرفوا بذلك على ما كان عليه هذا العالم من تقدم وازدهار ، فتأثروا بما تعرفوا عليه وما اتصلوا به الامر الذي ادى الى تطور نظر العرب الى الاشياء كما ادى الى تطور تصويرهم وتصورهم لما يحيط بهم .

لقد اتصل العرب بالامم المجاورة منذ امد بعيد ولكن هذا الاتصال كان ضيقاً محدوداً ،لا يعدو زيارات شخصية ورحلات تجارية، فلما وافى صدر الاسلام امتدت آفاق هذا الاتصال واتسعت رقاعه . مواكب متلاحقة من الجزيرة العربية تتدفق الى البلاد المجاورة وغير المجاورة ، الى البلاد التي ضربت بسهم وافر في الحضارة وظفرت بنصيب كبير من المدنية . ومواكب زاخرة من ابناء تلك البلدان تغدو الى الجزيرة العربية لتقيم وتستوطن في ظل الاماكن المقدسة حاضرة الاسلام في ذاك الزمان. وعقيدة واحدة تؤلف بين المشاعر والافكار ،تطوح بالماضي وآثار الماضي لينبت مكانه حاضر ابدي الجدة في تطلعه المشرئب نحو المستقبل . تضافرت كل هذه العوامل على ابداع جيل جديد ، جيل تطورت عقليته ونفسيته ، واصبحت نظرته الى القيم والمثل والمفاهيم ،نظرة انسان يشعر بوجوده ويحس بشخصيته ويؤمن بمعاني الحياة وحقيقتها وخيرها وجمالها ،فلم تعد اصداء الصحراء تجد لديه مداها الحي، لم يعد الحداء والنصب والنشيد يلقى من نفسه ما كان يلقاه في الزمن السالف ، بل صار يتطلب ما يتجاوب مع ما وصل اليه من تطور تاريخي ،فقد كان لهذه المواكب التي أمت الجزيرة العربية ،وأقامت في الحجاز ،أثرها البعيد في حياة العرب الجديدة لاسيما في فن الموسيقى، فقد كان في عداد هذه المواكب المؤلفة من عناصر مختلفة

فارسية وروسية وتركية ، واطلق عليها فيما مضى اسم « السبي » وأثارت دهشة الخليفة عمر بن الخطاب لكثرة عددها ، كان في عدادها من توفرت لديه مواهب فنية موسيقية فكان هذا الرهط من « السبي » يغني بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير ، كان يفعل ذلك امام الجماهير المحتشدة ، كانت هنالك صناجات تلعب بالصنوج وكانت هناك حبشيات شهدت لعبهم عائشة في زمن النبي (صلعم) اما في الدور والمنازل فقد كان بين افراد هذه المواكب البشرية من يمت بآصرة بنسب الى بيت ملك او بيت امارة ، وقد جلب مع من جلب من ابناء قومه في غزوة من الغزوات كان هذا الفريق من السبي يودع الالحان وهو يمارس عمله اليومي ، آلامه وأشجانه انه غريب الوجه واليد واللسان ، غادر بلاده وقد خلف وراءه مراتع الصبا ومغاني الشباب ، وكل ما يربطه بتلك الارض العزيزة عليه والغالية لديه . خلف كل هذا وراءه ليقيم في وسط غير وسطه وبيئة غير بيئته ، فكان اذا جاشت خواطره ولاحت له طيوف الماضي ، ورقصت حوله الذكريات ، آوى الى زاوية قصية يستعرض تلك الايام الناعمة الحلوة التي القت بظلالها على دنياه ، ولاحقته بكل مابها من رقة وعذوبة ، فاودع كل هذه المشاعر المرهفة ، الحانه الحزينة الشجية ، فتجاوبت ارجاء البيت الذي يقطن فيه بهذه الانغام ، واما خارج الدور فقد كان بين افراد هذه المواكب البشريه ، من يعمل في بناء المساكن الخاصة والعامة ، فكان الواحد منهم وهو يعمل يردد اغاني بلاده الاصلية ، يردد هذه الاغاني ليطوي الحياة في نغم ، وليجد في هذا النغم عزاء وسلوى عما فقد وعما اضاع ، كان هذا المولى الذي أستغل قوة عمله لتأمين قوت يومه ، يجد في نغمات بلاده الاصلية وهو يرددها في بناء دور معاوية ، نفحة من نفحات ماضيه السعيد ، وكان الناس اذ يمرون بهذه المواكب البشرية ، وهي تعمل وتغني ، يقفون ، يقفون ليستمعوا الى انغامهم ويصغوا الى الحانهم ، وهكذا اخذت الانغام والالحان غير العربية ، تطرق اذن العربي ، في البيت وخارج البيت في دنياه الخاصة وحياته العامة ، وكانت هذه الالحان وتلك الانغام من الرقة بحيث انها لفتت انظاره ، ومن العذوبة بحيث انها استرعت انتباهه ، وهو الذي لم يعرف حتى زمن عمر بن الخطاب كما يقول الاصفهاني غير النصب والحداء . فمن هؤلاء الذين كانوا يعملون في بناء دور معاوية اخذ سعيد بن مسجح الغناء ووضع اسسه العربية الجديدة .

كان سعيد بن مسجح، مولى لرجل اختلف الرواة في اسمه، ومهما يكن الامر فقد لعب هذا الفنان دوراً خطيراً في تاريخ الموسيقى العربية ،فقد توسم فيه مولاه النبوغ منذ صغره ،ولم يخب حدس سيده ولا تقديره ،فقد استطاع هذا المولى ان يحول مجرى الموسيقى العربية بما نقله من غناء فارسي الى شعر عربي .كانت اذن هذا الفنان من صغره دقيقة مرهفة ،فاستوعبت ماتناهى اليها من الحان الفرس ،وهم يعملون في بناء (الرقط) دور معاوية بن ابي سفيان ،كان اذ يمضي الى السوق يسمع غناءهم على بنائهم ، فيقف ليصيخ بسمعه الى تلك الالحان المتموجة المترافقة ،حتى اذا انطبعت في خاطره ،جعل يرددها في خلواته ،ثم اضفى عليها كلاما عربيا صافيا، شعراً لابن الرقاع وغير ابن الرقاع ،حتى اذا تمكن من فنه ،ذاع صيته وشاع. فالتف حوله شباب مكة وراحوا يقضون واياه حفلاتهم وسهراتهم ،فقد استحسن الناس ما صنع واعجبوا بما ابدع ، ولكن هذا الابداع وذاك الاستحسان ، ما لبث ان آل الى نقمة ، فقد عز على اهل الفتيان ان ينتهي المطاف بفتيانهم الى مثل ماانتهى اليه ،عبث ولهو، حفلات وسهرات ،فشكوا سعيد بن مسجح الى الوالي ، ورفع الوالي عقيرته بالشكوى الى الخليفة ،وحمل سعيد بن مسجح الى دمشق ليقف بين يدي عبد الملك بن مروان ،ويغني له، ويطرب الخليفة فيغدق عليه الهدايا والتحف ،حتى اذا عاد الى بلده ،عاد وهو مثقل بالهدايا والتحف ، هذا هو سعيد بن مسجح الذي وصف بأنه اول من وضع الغناء من المغنين ،واول من غنى الغناء العربي بمكة ،ولكن عبقرية سعيد بن مسجح ،لم تستمد عناصرها من اولئك الذين (سمع غناءهم على بنائهم) لم يقنع ابن مسجح بما تناهى اليه من الحان عمال الفرس الذين جيء بهم لبناء دور معاوية ، بل انه تحرى عن الفن الغنائي من ينابيعه الاولى ،فقد شخص الى الشام وأخذ الالحان ،والى فارس فأخذ غناء وتعلم الضرب ،ولما عاد الى الحجاز أخذ ما استحسن من فن القطرين وابدع لنفسه طريقة في الغناء ،اعجب بها الناس ،ومن تلك الصناجات التي جاءبهن الى المدينة عبد الله بن عامر بن كريز ،اخذ سائب خاثر فنه الغنائي ،فكانت هذه الصناجات المنار الذي اضاء لسائب خاثر طريقه الفني ،حتى اذا وفد نشيط الفارسي الى المدينة ، كان نشيط معلمه واستاذه ،والرجل الذي جعل منه ركنا من اركان الغناء العربي ،والفنان الذي وصف بانه اول من غنى في الاسلام الغناء العربي المتقن الصنعة ، واذا كان سائب خاثر، مدينا لانسان بما توصل اليه من عبقرية ، فهو مدين لعبدالله بن جعفر، فان عبدالله

هو الذي اشترى نشيطاً ، وكلفه بتعليم سائب ، وكان سائب خاثر، وفياً لعبد الله براً به ، فقد انقطع له وآلى على نفسه الا يغني احداً إلا عبد الله بن جعفر اوخليفة اوولي عهد او ابن خليفة ، وقد ظل سائب خاثر حفيظاً على قسمه ، حتى قتل في معركة الحرة.
وكما اخذ سعيد بن مسجح الغناء من عمال الفرس فكذلك فعل عبد الله بن سريج هذا المغني الذي وصف بانه اول من ضرب بالعود على الغناء العربي بمكة . كان سعيد بن مسجح (مخنثا احول اعمش) اذا غنى اسبل قناعاً على وجهه لئلا ينفر الناس من قبحه ، ومع هذا فقد تحلى بصفات لم يتحل بمثلها مطرب من المطربين ، قال عنه الاصفهاني (وكان ابن سريج اديبا طاهر الخلق عارفاً باقدار الناس) كتب الوليد ابن عبد الملك الى مكة ان اشخصه الي ، فلما مثل بين يديه وغنى أمامه ، قال له الوليد (لقد اوتيت امراً جليلا) ولما سمعه عمر بن عبد العزيز قال (لله در هذا الصوت لو كان بالقرآن) وكان ابن سريج اذا غنى الناس (اصغوا اليه بآذانهم وشخصت اليه اعينهم وطالت اعناقهم) وبلغ الامر بالشاعر جرير ان شخص اليه ، من المدينة الى مكة ليسمع غناءه ، وكما توجه سعيد بن مسجح الى بلاد فارس والشام للافادة من الفن الغنائي في هاتين المملكتين ، فكذلك فعل ابن محرز ، فقد ذهب الى فارس وتعلم الحان الفرس واخذ غناءهم ، ثم صار الى الشام فتعلم الحان الشام واخذ غناءهم ، واسقط كما تقول الكتب الادبية مالا يستحسن من غناء الفريقين ، واخذ المحاسن فمزج بعضها ببعض والف منها الاغاني التي صنعها في اشعار العرب ، فأتى بما لم يسمع مثله وقد وصف ابن محرز بانه صناج العرب .
وهكذا تطور الغناء العربي في العصر الاموي تحت تأثير التطور الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، الذي طرأ على دنيا العرب ، فلم يعد العربي يقنع بما قنع به الجاهلي من حداء ونصب ونشيد ، بل صار يتطلب غناء يتمشى مع ما وصل اليه من تقدم مادي ومعنوي ، فقد غنى سعيد بن مسجح بين يدي الخليفة عبد الملك ، حداء عربياً صافياً ، فلما انتهى قال له الخليفة : اتعرف الغناء المتقن ؟ قال بلى . وغنى سعيد بن مسجح غناء متقنا بين يدي عبد الملك ، فطرب الخليفة واجزل عطاء الفنان
ولكن هذا التطور الذي طرأ على الغناء العربي في العصر الاموي لم يكن من القوة بحيث انه قضى بصورة نهائية على الروح العربي في الغناء العربي ، وضع المغنون للاغاني العربية كلاما عربياً ، وغنوا الغناء المتقن ، وضربوا على العود بالغناء العربي

وذهبوا الى الشام وفارس ليضيفوا الى ثقافتهم الموسيقية ثقافة موفورة ، واخذوا ألحان الرهبان فعلوا هذا كله ، ولكن الروح العربية ظلت مسيطرة على الغناء العربي في هذا العصر ، فقد كانت الدولة ، دولة عربية بروحها و كيانها ، فظل هذا الطابع مسيطراً على مسارح الفكر ومطارح الشعور .

• • •

لم يحل انتقال الخلافة من الحجاز الى الشام ، دون مواصلة القطر الحجازي ، اداء رسالته الفنية الغنائية ، فقد كان هذا القطر ، معقل الغناء العربي منذ صدر الاسلام ، بما تناهى اليه وأقام بين ظهرانيه ، من رجال ضربوا بسهم وافر في فن الموسيقى ، فهؤلاء الرجال الذين وضعوا للغناء الفارسي الكلام العربي ، وغنوا الغناء المتقن ، وضربوا على العود بالغناء العربي ، وذهبوا الى فارس والشام ، لينهلوا من ينابيع الموسيقى الفارسية والرومية ، فيضاعفوا بذلك ثقافتهم الموسيقية هم الذين وضعوا الحجر الاساسي لفن الغناء العربي في الحجاز ، وجعلوا من هذه الرقعة المقدسة من ارض العرب ، موطناً لانبثاق فجر الموسيقى العربية الحديثة ، وبالرغم من استئثار الشام بالسلطان ، فقد ظل الحجاز محتفظاً بطابعه الفني هذا الطابع الذي اغدق على الغناء العربي طوال العصر الاموي ، اجمل الصور وابهى الالوان ، ظل الحجاز محتفظاً بهذا الطابع تحت تأثير عوامل مختلفة وبواعث متباينة ، فقد افضى انتقال الخلافة من الحجاز الى الشام ، الى عزوف معظم الحجازيين ، عن السياسة وما يتصل بالسياسة ، فالذين عز عليهم من ابناء الصحابة والتابعين والانصار ، التناحر القائم بين العرب على الحياة الدنيا ، عكفوا على انفسهم وانطووا على ذاتهم ، ورأوا في الزهد والتقشف والنسك ، عزاء الروح وطريق الخلاص ، وهكذا انفقوا قواهم المدخرة ، في تهجد غيبي ، حيث يتلاشى الشعور بالحياة في آماد اللانهايات ، والذين نظروا الى الحياة نظرة الرجل الذي يتقبلها دون ان يشرئب بعنقه الى ما تشرئب اليه اعناق الرجال العظماء ، اطلقوا العنان لعواطفهم ، وعاشوا بحواسهم الملتهبة المتدفقة ، فافنوا الحياة في الحياة وهكذا انفقوا قواهم المدخرة ، في متعة مطلقة . كان هذا الفريق يمثل الطبقة الارستقراطية ، الطبقة التي حيل بينها وبين العمل السياسي ، فانصرفت الى العبث واللهو ، تزج اوقات الفراغ ، فيما يزج فيه الفتيان اوقات فراغهم ، وتملأ خواء حياتها ، فيما يملأ فيه المترفون المسرفون حياتهم . في هذا الافق العطر ، الفواح الشذا

نمت الموسيقى العربية وازدهرت ، فقد وجدت لنفسها ، الوسط الذي يجذب عليها ويرعاها ، ويهبها قوة الانطلاق والامتداد ، في نطاق الافق الذي تمتد نحوه وتنطلق اثره ، كان هذا الوسط ،وسط الارستقراطية الحجازية ، ارستقراطية الحسب والنسب ، ارستقراطية عاطلة عن العمل موفورة الغنى ، كانت هذه الارستقراطية الناشئة ، محرومة من السلطان السياسي ، التي كانت تعتقد بانها وريثته الشرعية ، وانها وحدها الجديرة به دون سائر الناس اجمعين ، اليست هي سليلة اولئك الذين شيدوا دعائم الامبراطورية العربية ؟ اليست هي حفيدة اولئك الذين مكنوا للاسلام في الارض ، وحملوا رايته ونشروا رسالته ؟ كانت هذه الطبقة من ابناء الصحابة والتابعين والانصار ، تؤمن بكل هذه الاشياء ، ولكنها كانت مغلوبة على امرها ، كان سيف ديمقليس مسلطاً فوق رأسها ، اذا تمردت انبرت لها قوات امية ، قوات جبارة مبيدة ، فانطوت على نفسها في تلك الصحراء الجدبة القاحلة ، انطوت على نفسها ، وهي ترنو بابصارها الى ما حولها ، وقد احرق حياتها الحرمان ، الى ما تجد فيه عزاء وسلوى ، كانت هذه الطبقة غنية موسرة ، بما تحدر اليها من تراث ، وبما افاء عليها خلفاء أمية من اعطيات ، وكانت تعيش في واد غير ذي زرع ، وكانت فتية موفورة الحيوية ، تنشد مدى لفتوتها المتدفقة ، فاستسلمت لنزوات القلب ، في شيء من الرفق في حين ، وفي شيء من العنف في حين ، واستعاضت عن الطبيعة بالغناء ،وعن مراني الوجود بالفن .

وضعت هذه الطبقة الارستقراطية ، التي نبتت في ارض الحجاز ، نفسهاموضع الحارس الامين ، للفن الغنائي في العصر الاموي ، اذا ناهض الفن مناهض او عارض رجاله معارض ، انبرت للدفاع عنه وعنهم ، وللنضال دونه ودونهم ، فقد عاب مروان بن الحكم والي الحجاز ، عبد الله بن جعفر لاقتنائه الجواري المغنيات ، فما كان من عبد الله الا ان قال له : (وما علي ان آخذ الجيد من اشعار العرب والقيه الى الجواري ، فيترنمن به وينشدنه ، بحلوقهن ونغماتهن ؟) وقدم معاوية بن ابي سفيان المدينة في عام من الاعوام فمر بدار عبد الله بن جعفر ، فاذا به يسمع غناء على اوتار ،فوقف ساعة يستمع ، ثم مضى وهو يقول « استغفر الله » ولما عاد ، اذ بعبد الله يصلي ، فوقف الخليفة يستمع قراءته ، ولما انتهى عبد الله ابن جعفر ، مضى الخليفة وهو يقول (خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله

ان يتوب عليهم) واتصل ما قاله معاوية بن ابي سفيان ، بعبد الله بن جعفر ، فأعد للخليفة طعاماً ودعاه الى منزله ، بعد ان اوصى المغني ابن صياد : (اذا رأيت معاوية واضعاً يده في الطعام ، فحرك اوتارك وغن) ، وجاء معاوية ، ولما هم بتناول الطعام ، حرك ابن صياد اوتاره وغنى ، فطرب معاوية وقبض يده عن الطعام ، وجعل يضرب الارض طربا ، هنا ، قال عبد الله للخليفة : (انما هو مختار الشعر يركب عليه مختار الالحان ، فهل ترى بـه بأساً ؟) فأجاب معاوية : (لا بأس بحكمة الشعر مع حكمة الالحان) . وهكذا استطاع عبد الله بن جعفر ، ان يدفع عن الغناء نقمة الخليفـــة ونقمة الوالي ، هذا وعبد الله بن جعفر ، ابن عم رسول الله ، كان يقتني الجواري ويحيي الجفلات ، ويشتري القـــيان والمغنين المطربين ، فقد اشترى نشيطاً الفارمي ، فعلم نشيط الفارمي ، سائب خاثر اصول الغناء وقراعده ، وبذلك مهد عبد الله ابن جعفر سبيل تقـــدم الموسيقى ، وساهم بصورة مباشرة في تطور هذا الفن . وكما عرف عبد الله بن جعفر بميوله الفنـية فكذلك كان شأن حمزة بن الزبير ، فقد انقطع المطرب معبد لهذا الامير ، وفي ظله نشأ مالك بن ابي السمح ، فقد قدم مالك المدينة مع امه واخوته وهو فتى ، بعد ان اضر بقومه الجوع ، فكان عليه ان يذهب الى دار حمزة بن الزبير ، مع من يذهب من الناس الجياع ، ليعود الى اهله بما يقوم باودهم ، ولكن الفتى كان يرجع صفر اليدين ، لا طعام ولا ادام ، فكانت امه تتلقاه بالضرب وتأخـــذه بالشدة ، كان الفتى يقف امام باب الامير ، ليسمع معبد وهو يغني ، ويظل مصغياً حتى ينصرف الناس ، فاذا عاد الى مأواه ، عاد وهو يردد ما سمعه مـــن انغام والحان . ويظهر ان وقوفه المتواصل امام باب الامير ، لفت نظر حمزة بن الزبير اليه ، فاستدعاه وسأله عن قصته ، فروى الفتى للامير حكايته ، وقـال : لقد لزمت دارك لازابل الباب ، لاشنف مسامعي بـذاك الصوت الذي اعجبني وراقني ، فسأل الامير الفتى ، ما اذا كان يعرف شيئاً مـن الغناء الذي سمعه ، فأجاب : اعرف اللحن ولا اعرف الشعر . وجلب الامير المغني معبد ، وامره بالغناء امام الفتي الصغير ، فغنى ، فما كان من الفتى الا ان اعاد علـي مسامع الامير غناء معبد ، واعاده نغمة من غير شعر .

ومنذ هذا اليوم ، دخل مالك في عداد اولئك الذين شملهم الامير برعايتـه ،

اذ عهد الى معبد ، بتعليم مالك اصول الغناء .

روى الاصفهاني ان ابن ابي عتيق ، رأى حلق ابن عائشة مخدشاً ، فقال من فعل هذا بك ؟ قال فلان ، فمضى ونزع ثيابه وجلس للرجل على بابه ، فلما خرج ، اخذ بتلابيبه ، وجعل يضربه ضرباً شديداً ، والرجل يقول مالك تضربني ؟ اي شيء صنعت ؟ وهو لا يجيبه حتى بلغ منه ، ثم خلاه ، واقبل على من حضر فقال : هذا اراد ان يكسر مزامير داود ، شد على ابن عائشة فخنقه وخدش حلقه.

وابن ابي عتيق هو عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق .

ولم يقف الامر بهذه الارستقراطية ، عند حد تعزيز الحركة الفنية ورعاية رجالها ، بل ان مهمتها تعدت هذه الرعاية وجاوزت ذاك التعزيز ، فقد كان على هذه الارستقراطية ان تعمل جاهدة لانقاذ المطربين والمطربات والمغنين والمغنيات ، من الولاة المتزمتين ، ومن بحض هؤلاء الولاة من رجال السلطة الروحية على الفن وارباب الفن ، فقد كان من الصعب العسير على الارستقراطية الحجازية ، مناهضة رجال السلطة الروحية بصورة مكشوفة ، ذلك لان وجود تلك الارستقراطيه مرهون بوجود هذه السلطة ، وكل واحد من الاثنتين متممة للاخرى ، بحيث انهما يؤلفان كلا موحدا في شكلين مختلفين ، فكانت الارستقراطية الحجازية ، تتذرع بوسائل متباينة لانقاذ الفن والفنانين ، من الولاة المتزمتين ومن يؤيد الولاة المتزمتين ، كانت الارستقراطية الحجازية تدافع عن الفن ، لانه العزاء الوحيد الذي بقي لها في هذه الدنيا ، ولانها السلوى الوحيدة التي تملأ خواء حياتها ، فهي تحرص عليه لانه الشيء الوحيد الذي بقي لها ، بعد ان فقدت كل سلطان سياسي ، فهي لم تؤخذ باسباب الزهد والتقشف ، لتنسى مرارة الحرمان في ضراعة متوسلة ، وانما القت بنفسها في خضم الوجود ، لتنسى هذا الحرمان ، فهي تطوي الايام والاعوام في حلم واقعي ، تعيشه وتحياه ، اما السلطة الروحية ، فقد ناهضت الفن والفنانين ، لانها توجهت بنظرها الى السماء ، فهي تجتوي الحياة وكل ما يغري ويغوى في هذه الحياة ، وهي لم تلق بنفسها في خضم الوجود ، لتنسى مرارة الحرمان ، بعد ان نفضت يدها من الارض ، بل استنامت الى حلم غيبي ، ووجدت في هذا الحلم ، ملاذها الامين ، انها استعاضت عن مشاعر — بمشاعر ، وبالرغم من هذا الصدوف عن الحياة الدنيا ، فقد كانت هذه السلطة الروحية ، تتمتع بسلطان مباشر وغير مباشر ، في المجتمع الذي تعيش بين

ظهرانيه ، الامر الذي حمل الارستقراطية الحريصة على الاحتفاظ بمكانتها لدى المجتمع الذي تعيش فيه ، على عدم مجابهتها ،فيما اذا تصدت للفن والفنانين، فقد حظر والي المدينة (عثمان بن حبان المري) على المغنيات الاقامة في المدينة ، فضجت الارستقراطية واضطربت ، وعز عليها ان تقفر مدينتها من رياحين نضرة ،كانت على تلك الارجاء القاحلة الجرداء ، وما كان في مقدور هذه الارستقراطية ان ترفع عقيرتها بالشكوى ، لان الوالي المعزز بارادة رجال السلطة الروحية ، هو من القوة بمكان . ماذا تصنع ؟ ماذا تعمل ؟

ذهب ابن ابي عتيق الى الوالي ومعه المطربة سلامة القس ، ووقفت المطربة بين يدي الوالي ، فأثنت عليه وعلى آبائه واجداده ، ورتلت ما تيسر من آي الذكر الحكيم ، فلما سمع الوالي الترتيل افتر ثغره واشرقت اساريره ، فاوعز ابن ابي عتيق الى المطربة ، ان تحدو ، فحدت ولما تناهى صوتها الحنون الى اذني الوالي زحف اليها وطلب منها الزيادة ، وهكذا استطاع ابن ابي عتيق ان يصرف الوالي عما هو في سبيله . وكما تعرضت سلامة القس وزميلات سلامة القس للنفي ،فكذلك كان شأن الفنان سعيد بن مسجح ، فقد تألب اخصام الفن والفنانين ضد هذا الرجل وشكوه الى والي مكة ، فما كان من الوالي الا ان كتب الى الخليفة في دمشق يعلمه خبر هذا العبد الاسود الذي فتن الناس ، فامر الخليفة الوالي بمصادرة اموال سعيد بن مسجح ، وتسييره اليه ،فانطلق الفنان الى دمشق ليقابل الخليفة ، واني له سبيل الوصول اليه ؟ وتلفت الفنان ذات اليمين وذات الشمال ، فلم يجد امامه الا الطبقة الارستقراطية ، فدلف اليها وروى لها حكايته ، فخفت الى نجدته ومهدت له طريق المثول امام عبد الملك بن مروان ، ولما غنى الفنان ، طرب الخليفة ، وعفا عنه وامر والي مكة باعادة امواله اليه . هكذا كان موقف الارستقراطية في العصر الاموي من الفن والفنانين . غنى رجل في المسجد الحرام وهو مستلق على قفاه صوتا ، ورجل من قريش يصلي في جواره ، فسمعه خدام المسجد ، فقالوا : يا عدو الله تغني في المسجد الحرام ؟! ورفعوه الى صاحب الشرطة ، فتجوز القرشي في صلاته ثم سلم واتبعه . فقال لصاحب الشرطة : كذبوا عليك اصلحك الله، انما كان يقرأ ، فقال يا فساق اتأتوني برجل يقرأ القرآن،تزعمون انه غنى ، خلوا سبيله فاخلوه.

وقال القرشي للرجل :

- والله لولا انك احسنت واجدت ما شهدت لك ، اذهب راشدا .

وكما وجد الغناء العربي لدى الارستقراطية الحجازية ، موئلا ومعينا ، فكذلك كان نصيبه من خلفاء الدولة الاموية ،فقد كانت لهؤلاء الخلفاء ، حياتهم الخاصة ، تلك الحياة التي استدعاها تطور العرب ، فقد دخلوا في هـذا العصر ، مرحلة جديدة من مراحـل التاريخ ، كانوا سادة ، يتمتعون بسلطان سياسي واجتماعي واقتصادي ، لم يظفروا بمثله في حقبة من الحقب ، وليس في الامكان الاحتفاظ بهذا السلطان ، اذا لم يتمش" الخلفاء الامويون مع سير الحضارة التي طرقوا بابهـا ودلفوا الى معاقلها ، كان الحكم في العهد الراشدي ، حكما جمهوريا ، اما الان ، فان الحكم ملكي ، تقوم حاضرته ، الى جوار بمملكة عريقة في القدم اصيلة في المدنية ، وسلطته تبسط يدها على رقاع ساهمت بقسط وافر ، في بناء الحضارة الانسانية . فليس من المنطق في شيء ، ان يبقى الحكم الاموي ، محتفظاً بطابع البساطة والسذاجة ، كما انه ليس من المنطق في شيء ، ان يبقى متمسكا بديمقراطية بدائية - استدعتها طبيعة الصحراء ، ومن هنا كان التحول الذي طرأ على طراز الحكم الاموي ، في الشكل والمحتوى ، تحولا طبيعياً ، بعد ان توفرت له المادة الاولية الضرورية ، ولعل ابرز مظاهر هذا التحول هو هذا التجدد الذي شمل الغناء العربي في هذا العصر ، اذ لا شيء اظهر من الفن في تبيان الحركات الفاصلة في تاريخ الشعوب ، فالفنان العربي لم يعد يجد في احدية الحادي ، ما يتجاوب مع طبيعة العصر الذي يعيش بين ظهرانيه ، ان الذين يحدبون على الفن لا يقيمون في الخيام ، بل في القصور ، حتى ذاك الاعرابي ، الذي عاش في المفاوز والواحات ، تعرف خلال رواحاته وغدواته ، الى انغام جديدة ، الامر الذي حمل معظم الفنانين على ارتياد فارس والشام ، لتعلم اصول الغناء وقواعده ، وليهبوا الغناء العربي ، اشياء جديدة ، تتفق مع حياة العربي الجديدة ، فقد ذهب ابن محرز ، الى فارس وتعلم الحان الفرس واخذ غناءهم ، ثم صار الى الشام ، وتعلم الحان الشام واخذ غناء اهل الشام ، حتى اذا آب الى الحجاز « اسقط مالا يستحسن من غناء الفريقين واخـذ المحاسن ، فمزج بعضها ببعض ، والف منهـا الاغاني التي صنعها في اشعار العرب ، فاتى بمالم يسمع مثله » واخذ الغريض من رهبان الاديرة (فوضع على مثل ما سمعه لحنا) وما يقال عن هذين الفنانين ، يقال عن غيرهما من فناني ذاك العصر الذين ادركوا ما طرأ على عصرهم من تطور ، فصاغوا تحفهم الفنية

وفاق ما آل اليه عصرهم ، وانتهت اليه حياتهم ، اما خلفاء الدولة الاموية ، فقد ايدوا هذا التطور وعززوه ، استمعوا الى اغاني عبدالله بن سريج ، وسائب خاثر ، وابن مسجح ، ومعبد ، والغريض ، وجميلة ، وسلامـــة القس ، وعزة الميلاء ، فوجد المغنون والمغنيات ، حدبا من الخلفاء على الفنانين وعطفا على الابداع ، كان الخلفاء يسألون عن المطربين ويحضرون مجالسهم ، ويطلبون من الولاة اشخاصهم اليهم ، فقد سأل الخليفة معاوية بن ابي سفيان ، عن سائب خاثر ، حينما ام عبدالله بن جعفر دمشق ، وقيل ان معاوية قضى ليلة على باب ابنه يزيد ، يستمع الى غناء سائب خاثر ، ولم يشأ الدخول عليه لئلا يقال ان الخليفة غشي مجالس الفتيان ، اما يزيد فقد قال عنه المسعودي (وفي ايامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهي واظهر الناس شرب الشراب) وحدثنا صاحب الاغاني عن عمر بن عبد العزيز قال : (كان من غنى من الخلفاء ونسبت له اصوات جماعة ، منهم عمر بن عبد العزيز ، قد نسبت له اصوات ، ومنهم من انكر ذلك ، ولعل ما نقل عنه ، كان منه قبل الخلافة ، وكان رحمه الله من احسن الناس صوتا) وجاء في مروج الذهب ، ان الخليفة عمر بن عبد العزيز ، صرف احد قضاة مكة عن عمله ، لان الطرب استرقه ، فلما غنت جارية القاضي بين يدي الخليفة ، طرب واقبل يستعيدهـا ، ثم امر القاضي بالعودة الى بلده راشداً ، واما سليمان بن عبد الملك فقد ناهض المغنين والمطربين ، ولكن هذا لم يحل بينه وبين استدعاء المغني « الدلال » سراً من المدينة الى دمشق ، ليستمع الى غنائه . حج هشام بن عبد الملك ، فوقف له حنين ومعه عوده وزامره ، فسأل هشام عنه ، فقيل له : هذا حنين ، وأمر به فحمل في محمل على جمل وعديله زامره ، وسير به امامه وهو يغني ، وقدم يزيد بن عبد الملك مكة ، فبعث الى الغريض ، فجاءه وغنى بين يديه ، وانصرف يزيد الى الغناء ، حتى شغله عن شؤون الخلافة ، اما الوليد ابن يزيد فقد حمل المغنين من البلدان اليه ، وجالس الملهين واظهر الشرب والملاهي والعزف وغلبت عليه شهوة الغناء في ايامه ، الى جانب هذا الموقف يقفه الخلفاء من الغناء ، فقد كان هناك فريق من رجال الدين ، يجيز سماع الغناء والاصغاء اليه . كان الحسن البصري يرى ان الغناء (نعم العون في طاعة الله تعالى ، يصل بها رحمة ويواسي به صديقه) اما عطاء بن رباح ، فقد سئل مرة ، عن قراءة القرآن على الحان الغناء والحداء ، فاجاب : وما بأس ذلك ؟ وتروى عن عطاء بن رباح قصة

مفادها ، انه لقي مرة عبدالله بن سريج ، فانبه وعنفه ، ودعاه الى الكف عن الغناء ، فما كان من ابن سريج الا ان قال له : الا سمعت مني شيئا من الشعر؟ فان سمعت منكراً ، امرتني بالامساك عما انا عليه وانا اقسم بحق البنية ، ان امرتني بعد استماعك مني بالامساك عما انا فيه لافعلن) وغني ابن سريج وسمع عطاء بن رباح، حتى اذا انتهى، اضطرب عطاء اضطرابا شديداً، فحلف الا يكلم احداً بقية يومه الا بهذا الشعر ، ولم يعاود ابن سريج بعدها ولم يعرض له : وحكي ان الاوقص المخزومي لما ولي مكة ، مر به وهو نائم سكران ، يغني ويلحن في غنائه ، فاشرف المخزومي عليه ، وقال له : شربت حراما ، وايقظت نياما ، وغنيت خطأ خذه عني ، واصلحه عليه .

وقد كان لهذا كله ، اثره البعيد في تقدم الغناء وازدهاره ، اذ وجد الفن خلال العصر الاموي ؛ الانصار الذين يؤيدون حركته ويباركون خطوته . وبالرغم من الاضطهاد الذي كان يلقاه بين الفينة والفينة . ولا ريب ان هذه النصرة يلقاها الفن الغنائي في العصر الاموي ، من رجال الحكم وغير رجال الحكم ، كان ظاهرة طبيعية لتطور عقلية العرب ونفسيتهم خلال هذا العصر ، فقد فرض هـذا التطور وجوده ، تحت تأثير العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، التي المت بالعالم العربي ، فتجدد تصور وتصوير هذا العالم ، للقيم والمثل والمفاهيم ، الامر الذي ادى الى نشوء فن جديد ، يتجاوب مع هذه المفاهيم والمثل والقيم . وهكذا اتسم الغناء في العصر الاموي بسمة التجدد ، التجدد الذي سار بتؤدة ولين ، دون ما عنف ودون ما شدة ، ذلك لان هـــذا التجدد ، كان يتمشى مع طبيعة العصر من ناحية وينطلق دون ان يجد في طريقه كلاسيكية غنائية محافظة من ناحية اخرى .

جميلة

وقفت مولاة جميلة ، في صحن الدار ، ترهف السمع الى صوت رخيم حنون ، يتعالى برقة وعذوبة ، في الاجواء الرحبة ، والليل ساكن حالم ، لا نأمة ولا حركة ، وفي صمت تساءلت : ايمكن ان يكون ذلك ؟ وهل في مقدور تلك الحنجرة ، ان ترجع مثل هذا الانغام الحلوة ؟ واسترقت الخطى الى مصدر الصوت ، الى حيث تجلس جميلة في ظل نخلة وارفة ، وراحت تتأمل تلك المخلوقة المتلاشية في الحانها المجنحة ، ولما خطت خطوة الى الامام ، احست جميلة بحركة ، وبخفيف ثوب ، وعبق ارج ، فامسكت عن الغناء ، امسكت ، وفي الحنجرة نغم حبيس ، ولكن السيدة التي هزتها نشوة الطرب ، عز عليها ان يسكت هذا البلبل الوحشي ، الذي انفرد بنفسه ليغني ، في تلك المفازة من نور القمر الفضي ، فامرت السيدة جاريتها بالغناء ، ولكن الجارية اعتذرت ،اذ خشيت عقبى ما فعلت ، خشيت ان يعود عليها هذا الصوت الجميل بنتائج غير مستحبة ، كم هي في غنى عنها ، غير ان السيدة الحت في الطلب واسرفت في السؤال ، لقد كانت تريد التمتع ، بصوت جاريتها المملوكة ، التي ما كانت تنظر اليها قبل حقبة قصيرة الامد ، الا نظرتها الى سلعة من سلع البيت ، تتصرف بها كيفما شاءت ، وتلهو بمقدراتها كيفما ارادت ، وحيال هذا الاسراف في الطلب والالحاح في السؤال ، لم تجد جميلة مندوحة من الغناء ، فغنت ، واقبل اهل الدار على الصوت ، يسمعون جميلة مولاتهم ، تغني فتهز المشاعر وتثير الخواطر ، وضاعت جميلة في اللحن ، لم تعد تلك المخلوقة التي تدب فوق الارض ، بل نغمة متموجة متراقصة ، تسبح في عالم من رؤى قدسية ، واشرقت روحها ، ففاضت على كل شيء ، فاذ بالوجود يتألق بهذا الفيض ، واذ بكل ما حولها في انجذاب وغيبوبة ، ولما امسكت ، كان السكون يرنق على الاجواء المطرقة المتضوعة بشذا الصوت . ومنذ هذا اليوم ، عرف الناس جميلة ، عرفوا هذا الانسان الذي

وهب حياته للفن ، وكان الفن عزاءه الوحيد في عالم لا يقر لمن كان على شا كلتها ، حق التمتع بجرية الحياة . فقد كانت جميلة مولاة ، مثل سائر الموالي ، ولكنها مخلوقة يجيش كيانها بالحيوية ، كانت مخلوقة تحس بوجودها ، وكان هذا الاحساس ، يقوى ويشتد ، كلما تراكم مخزون ذاك الفيض الحيوي ، وما كان في مقدورها ان تجد له مخرجا ، ترفه به عن نفسها المثقلة بمرارة الحرمان ، فكان كلما تضاعف هذا المتراكم من الاحساس ، كلما تدفقت مشاعرها وتحفزت عواطفها . انها امرأة جميلة ومن حقها ان تتمتع بما حبتها به الطبيعة من مفاتن ، ولكن الجميل لا نصيب له الا الالم ، فلما استمعت الى الفنان سائب خاثر الذي كان يقيم في جوار منزل مولاتها ، وجدت في انغام هذا الفنان ، صدى لما يضطرب في قلبها ، فرددت ما سمعته في في خلواتها، وفيما تختلس من اوقاتها، رددت اللحن ، اذ وجدت فيه مدى لشعورها الحبيس ،واحساسها الكظيم، فلم يكن اللحن مجرد نغمة، مجرد معزوفة، تحفظ فترجع، وانما كانت صرخة روح ، صرخة تتعالى في صمت وسكون ، صرخة تعبر فيها عن المشاعر التي ما كان في مقدور انسانة مثلها ، أن تعبر عنه في عصر نظير عصرها . وهكذا وجدت جميلة في الفن الاداة التي تصور الالم الذي يساورها ، الم انسان محروم من التمتع بجرية الحياة ، تمتع كل كائن حي في حياته، وكما املى عليها شعور الحرمان ، ذاك الطابع الحزين ، كذلك اوحى لها هذا الشعور ، الانطلاق من القيود المألوفة ، فهي حزينة في الحانها المصعدة في حين ، وعابثة في حين آخر ، انها حزينة اذ تصور حياتها ، وعابثة اذ تفكر بما تشتمل عليه هـــذه الحياة ، ولم تلق جميلة من مولاتها تثريبا على مزاولتها الغناء وعكوفها عليه ، فقد كانت هذه المولاة، تأمل ان تفيد من جميلة ، فيما اذا نبغت ، كانت تأمل ان تبيعها بثمن اوفى من الثمن الذي يؤدى لها ،فيما اذا كانت مولاة عادية، فشجعت جميلة وحضتها على الغناء، وجعلت من بيتها، منارة للفنانة الناشئة، تريق الضياء هنا وهناك، لتنير سبيل اولئك الذين ينفقون عن سعة في اقتناء الجواري المغنيات ، وكانت جميلة ، شأن كل امرأة مرهفة الحس، تتألم من عرضها على الناس عرض السلع، ولكنها كانت تجد فيما هي في سبيله، طريق الخلاص، طريق تحررها النهائي من رق العبودية ، ولما ازفت الساعة، كانت جميلة سيدة بيتها المطلقة ، كانت سيدة بيتها، لانها استطاعت ان تنشىء لنفسها

مأوى يخف اليـه سروات الناس ، تحيي السهرات وتقيم الحفلات ، تدعو هـذا ، وترحب بذاك ، بل صارت جميلة سيدة بيتها ، الآمرة الناهية فيه ، ولكنها لم تصر سيدة نفسها ، كانت حياتها التي وقفتها على الفن ، ملكا لاولئك الذين ينعمون بمباهج الفن ، للذتهم الشخصية ، لاولئك الذين يريدون منها ان تغني ما يقترحون عليها من غناء لا ما تقترحه هي ، وتحبه وتهواه وتشتهيه ، لقد سمت جميلة « كما يقولون » بالفن الى ذاك الافق الارستقراطي الـذي يفرضه الوضع الارستقراطي في ذاك الزمن ، ولكن هذا السمو ، كان ينكس رأسه ويسبل جفنيه ، امام السادة الذين يتصرفون بمقدرات مجتمع العصر الاموي ، كانت تأبى الذهاب الى دور الناس ، ولكنها كانت تمشي الى دور سادة الناس ، ولم يكن هذا الاباء ، نتيجة طبيعية لكبرياء الفن ، وانما كان نتيجة طبيعية لعقلية الارستقراطية ، هذه العقلية التي لا يمكن لها ان تتصور الحياة ، بدون امتيازات خاصة ، تتمتع بها دون سائر الناس اجمعين ، لقد كانت الارستقراطية تريد ان تحتكر جميلة وفن جميلة لوحدها .

* * *

كانت جميلة تدرك تمام الادراك ، ما لهذه الارستقراطية من اثر في المجتمع الذي تعيش بين ظهرانيه ، فكانت تتقرب اليها وتصلي في محرابها ، كانت تفعل ذلك ، لانها تعتقد بأنَّ هذه الارستقراطية ، ولو ظلت محرومة من كل سلطان سياسي ، ولكنها تتمتع بمركز اجتماعي مرموق ، فكم من مرة دافعت عن الفن ، وكم من مرة حالت دون الولاة المتزمتين وعقاب المطربات والمطربين ، كما ان جميلة كانت تدرك حق الادراك ، ان وجودها مرهون بما تجود به عليها هذه الارستقراطية من هبات ، وما تبذله لها من اعطيات ، فكانت تدعو عبد الله بن جعفر واضراب عبد الله بن جعفر ، الى منزلها بعد ان تعد الطعام والشراب ، وتأمر جواريها بالتجمل والتزين والبهرجة ، حتى اذا تكامل عقد المجلس ، انبرت للغناء هي وجواريها ، وربما قامت بنفسها وهي ممسكة بالعود ، تمشي وتغني ، وتنطلق اثرها القيان تفعل فعلها وتلهو لهوها ، وقد ارتدت الثياب المصبغة الزاهية الالوان ، واسبلت الغدائر ، وقد كانت الارستقراطية الحجازية تجد في مثل هـذا الضرب من العبث ، ما يملأ حياتها الفارغة ، كانت تحب الفن وتنشده ، لا لانه صورة من صور واقع الانسان الحي ،

ولا لأنه مظهر من مظاهر الابداع الانساني ، ولا لأنه حاجة من حاجات المجتمع ، بل لانه وسيلة من وسائل تزجية اوقات الفراغ ، وأداة من ادوات التعبير عن النزوات والصبوات ، والاهواء والرغبات ، وهكذا وجهت هذه الارستقراطية العاطلة عن العمل ، الفن وجهة تتجاوب مع طبيعة الحياة التي تحياها ، فانطبع الفن بطابع هذه الحياة ، ولم يكن الفنان لنفسه ، بمقدار ما كان لغيره ، لاولئك الذين يطلبون اليه الغناء ، حتى اذا غنى ، كان غناؤه صدى لعاطفتهم ، لا عاطفته الصافية النقية ، الامر الذي افضى بالفن الى غلبة السطحية عليه ، وما تتطلبه هذه السطحية من تهاويل ، لتخفي وراء الاشكال والالوان ، زيفها ، فحاد الفن بذلك عن البساطة ، هذا الشيء الذي كان وما زال سر الجمال ولم يكن في مقدور جميلة ولا غير جميلة من المطربين والمطربات ، ان يقولوا غير ما اراده لهم وضع مجتمعهم ، كان على الفنان او الفنانة ، ان يتأدب بادب الارستقراطية ، بسلوكها وثقافتها ، حتى يظفر بمكانة في المجتمع الذي يعيش فيه ، وقد استطاعت جميلة هذه المخلوقة التي نشأت نشأة الموالي ، ان تخلق نفسها خلقا جديداً ، خلقا يتفق مع حياة البيئة التي وضعت نفسها فيها ، فقد كانت هذه المخلوقة امرأة كاملة الانوثة ، لم تتلقَّ الغناء كما يتلقاه اولئك الذين يؤمنون بالالهام ، ولا تعلمته تعلم التلميذ ، وانما انبثق في كيانها انبثاق ينبوع ، فانفجر دفعة واحدة ، وفاض على كل ماحوله ، فكسبت كما قالت لمواليها مالم يخطر لهم على بال وحظيت بمركز ما كان يدور بخلدها انها ستحظى بمثله ، فقد زودت هذه المرأة نفسها بثقافة عصرها ، حفظت اخبار العرب واشعارهم ، وسير العشاق واخبارهم ، فخف اليها الشعراء والمغنون ، يسألونها رأيها في شعرهم وغنائهم ، فكانت تصدر حكمها على هؤلاء وهؤلاء دون ماتحيز ودون ما ايثار ، فكان عمر بن ابي ربيعة والاحوص والعرجي ، وغيرهم من شعراء ذاك العصر ، يقصدون بيتها لحضور مجلسها ، فكانت تغني شعرهم ، وتدلي بوجهة نظرها فيما ينظمون كما كان ابن سريج والغريض وابن مسجح وابن محرز ، يشخصون اليها ليغنوا بين يديها حتى اذا ما انتهوا قالت لهم :

كلكم محسن وكلكم مجيد في غنائه ، اما انت يا ابن سريج فتضحك الثكلى بحسن صوتك ومشاكلته للنفوس وبرقة غنائك وامتزاجه بالارواح ، واما انت يا معبد

فنسيج وحدك بجودة تأليفك وحسن نظمك مع عذوبة غنائك ، واما انت يا ابن مسجح ، فلك اولية هذا الامر وافضليته ، واما انت يا ابن عائشة ، فمع الخلفاء تصلح ؛ واما انت يا ابن محرز ، فلو قدّمت احدا على نفسي لقدمتك ، واما انت يا غريض ، فلو ابتدأت لقدمتك عليهم .

ولم يجد الفنانون غضاضة فيما قالت ، فقد كانت جميلة في نظرهم ، سيدة الغناء ، قال معبد (اصل الغناء جميلة وفرعه نحن ، ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين) ، لقد كانت جميلة اصل الغناء في نظر معبد وغير معبد ، وهي المرأة العصامية التي انشأت نفسها بنفسها ، واستطاعت ان تفرض وجودها على المجتمع الذي كانت تعيش فيه ، اذ ظفرت هذه الفنانة ، بمكانة اجتماعية لم تظفر بمثلها امرأة على شا كلتها ، عزمت على الحج ذات مرة ، فسار في موكبها رجالات المدينة ، وقدر عدد القيان اللواتي رافقن هذا الموكب بخمسين قينة ، ولما وصلت جميلة الى مشارف مكة ، خف سروات الناس لاستقبالها والحفاوة بها ، حتى اذا قضت مناسك الحج ، ويممت وجهها شطر المدينة ، انطلقت معها طائفة كبيرة من سادة مكة ، لتسير في موكب الفن الى المدينة ، حيث تتألق انواره ، وتعبق ازهاره ، ولما وصلت (خرج الرجال والنساء ، فوقفوا على ابواب دورهم ينظرون الى جمالها والى القادمين معها) هكذا استقبلت جميلة ، لم تكن المدينة في ذاك الزمن ، حاضرة الخلافة ولا قاعدة الملك ، كانت المدينة ، هيكل الفن ، ولم يكن لهذا الهيكل من نصب ، الا جميلة ، وهاهي ذى عذارى هذا الهيكل تصفق باجنحتها في الفضاء الرحب ، وتمضي ، وتمضي ، لتحلق فوق ذاك الرمز الحي للفن في اشراقه الابدي .

معبد

اذا اقبل الليل ونامت العيون وتألقت النجوم في الافق الرحب تعالى في الاجواء صوت شجي حنون فبدد السكون الشامل والهدوء الكامل وتهادت النسمات على تلك النغمات ، كان هذا الصوت صوت فتى لم يزل في ربيع العمر لا هو بالاسود القاتم ولا بالابيض الناصع . صوت فتى توسد صخرة من صخور ظهر الحرة وقد هجعت امامه قطعان الغنم واستسلمت الى غفوة هنية في تلك الليلة المشرقة المتموجة الظلال ولم يكن هذا الفتى المديد القامة يجهل اثر صوته الطري الندي في النفوس . كان يعلم انه اوتي شيئا جسيما في هذه الحياة الدنيا وان الموهبة التي حبته اياها الطبيعة هي من الاهمية بمكان ، هي ثروة وما عليه الا تعهد هذه الثروة بالعناية لتزهر وتشع فيتحرر من عبودية الرق وبذلك يحقق وجوده ويبدعه . ومنذ اليوم الذي خامرته فيه هذه الفكرة شرع بارتياد اماكن الغناء يختلس الخطى الى بيت جميلة اوسائب خاثر او نشيط ، فيصغي الى الحان هذا واغاني تلك ، حتى ظفر بقسط غير يسير مما يصبو اليه من اغان والحان ابان عودته فيما هو في سبيله ، وراح معبد يردد ما حفظه في اطراف المدينة في ظلال النخيل حيث لا رقيب ولا حسيب ، ويظهر ان مواهبه الصوتية كانت من الروعة بحيث انها انبثقت بسرعة غير متوقعة ففي الوقت الذي كان معبد يجهل فيه مدى عبقريته الفنية ، كان هناك من يدرك اثرها في النفوس ، وكان ابن سريج والغريض اول من لاحظ هذا الشيء الذي لم يتوصل اليه معبد نفسه فقد اتفق لهذين المطربين ان رحلا الى المدينة (للتعرف بمعروف اهلها) ولما وصلا الى اطرافها كان معبد في ساعة من تلك الساعات الالهية ساعات التملي والتمحيص حيث هو في غيبوبة ينثر حينما اتفق اجمل الالحان ، واصغى ابن سريج والغريض الى هذا الصوت الصافي الرنان ثم نظر الواحد منهما الى الاخر وقد تملكتهما الدهشة وساورتهما الحيرة . لقد اقبلا الى المدينة ليتكسبا بالغناء اذ كان كل

واحد منهما يظن بانه لن يجد في يثرب ندا ولن يلقى نظيراً وها هو ذا الآن امام غلام يرسل صوته الفضي فيسبي ويغوي فالتفت ابن سريج الى صاحبه الغريض وقال :

– هل سمعت كاليوم ؟

– لا والله

– ما رأيك ؟

وكان الجواب ان رجع الاثنان من حيث اقبلا و كرت الايام فاذا بابن سريج يعود ثانية الى المدينة يصحبه ابن ابي العتيق ولكن اسم معبد لم يعد نكرة ، لم يعد معبد يغني في هدأة الليل امام قطيع الغنم ولا في وضح النهار في ظلال النخيل بل في مجالس القوم الغنائية ولما سمعه ابن سريج قال له ابن ابي العتيق :

– ما تقول ؟

– ان عاش هذا الغلام كان مغني بلاده .

وحقت نبؤة ابن سريج فقد اصبح معبد مغني بلاده وعلما من اعـــلام الغناء العربي اذ أجمع المطربون في عصره على تفوقه عليهم بالغناء. كان المغني مالك اذا سئل انت احسن غناء ام معبد ؟ اجاب : والله ما بلغت شراكه قط ، وكان ابن عائشة اذا مدح في مجلس ما قال :

لقد اخذت عن معبد . وذهب اسحق الموصلي الى القول (معبد احسن الناس غناء واجودهم صنعة واحسنهم خلقا وهو امام اهل المدينة في الغناء) اما الكتب الادبية فقد وصفته (لقد كانت له صنعة لم يسبقه اليها من تقدم ولازاد فيه من تاخر) ولكن هذا الفنان العظيم الذي احرز مثل هـــذه المكانة الفنية ما لبث ان مني في آخر ايام حياته بنكبة لم يمن بمثلها غيره من الفنانين فقد فقد موهبته الصوتية هـذه الموهبـــة التي هي كل شيء بالنسبة له ، هي حياته وما ملكت يمينه .

لقد كان الغناء لمعبد اكثر من حرفة يمارسها ليظفر بقوت يومه . كان الغناء مادة وجوده وقوام حياته و كما قال سبينوزا (اعيش لافكر) فكذلك كان شأن معبد يعيش ليغني فكان معبد مثل البلبل يغرد ويشدو لان الشدو والغناء طبيعتان اصيلتان فيه فهو اذ يعبر عن مشاعره في الالحان انما يرمز بذلك الى وجوده ، الى حقيقته الحية فلما مني بخسارة صوته شعر معبد بان وجوده لم تعد له حقيقة وان العالم الذي كان

رجع صدى لما يجيش في صدره ويضطرب في قلبه قد استحال الى جماد ابكم اصم فالغدران المترقرقة والظلال المتحركة والارض والسماء وكل شيء ينصت له قد آل الى فراغ رهيب. وضاعف من حزنه تلك البسمة الساخرة الصفراء التي كانت تلوب على شفاه اولئك الفتيان الذين لم يسعفهم الحظ لسماعه في زهوة شبابه. كان هؤلاء الفتيان يسخرون منه ويعبثون به اذا ما غنى. كانوا يفعلون ذلك غير آبهين بعواطفه الحساسة ومشاعره المرهفة ومع ذلك فقد كان معبد (يحمل ويمتنع) مثل ذاك الروائي القديم، مثل ذئب دوفيني.

* * *

ترامت شهرة معبد، حتى عمت ارض الحجاز، فراح المغنون والمغنيات، يتوافدون عليه، ليأخذوا عنه ويقتبسوا منه، فقد كان معبد في نظر ابناء جيله معلما كبيراً (لم يكن فيمن غنى احد اعظم بالغناء منه) اخذ عنه حكم الوادي واضراب حكم الوادي، كما اخذت عنه سلامة القس وامثال سلامة القس، وانتشر تلاميذه وتلميذاته في الآفاق يرددون الحانه ويذيعون انغامه، حتى وصل اسمه الى مسامع الخليفة الوليد بن يزيد، فاستدعاه الى دمشق، ليعلم جواريه الغناء، ويذهب معبد الى حاضرة الاسلام، فيستقبل بالقصر الملكي، استقبالا رائعاً حافلا، وصفه صاحب الاغاني بقوله :

لما بلغ الوليد قدوم معبد، امر ببركة بين يدي مجلسه، فملئت ماء ورد خلط بمسك وزعفران، ثم فرش للوليد في داخل البيت على حافة البركة، وبسط لمعبد مقابله على حافة البركة، ليس معهما ثالث، وجيء بمعبد فرأى ستراً مرخى، ومجلس رجل واحد، فقال له الحجاب : يا معبد سلم على امير المؤمنين واجلس في هذا الموضع، فسلم، فرد عليه الوليد السلام من خلف الستر ثم قال له : حياك الله يا معبد، اتدري لم وجهت اليك ؟

قال : الله اعلم، وامير المؤمنين.

قال : ذكرتك، فاحببت ان اسمع منك.

قال معبد : أأغني ما حضر ام ما يقترحه امير المؤمنين ؟

قال بل غنني :

ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا وريب الدهر عداء
ابكي فراقهم عيني وارقها ان التفرق للاحباب بكاء

فغناه ، فما فرغ منه ، حتى رفع الجواري السجف ، ثم خرج الوليد فالقى نفسه في البركة فغاص فيها ، ثم خرج منها فاستقبله الجواري بثياب غير الثياب الاولى ، ثم شرب وسقى معبداً ثم قال له غنني يا معبد :

يا ربع مالك لا تجيب متيما قد عاج نحوك زائراً ومسلماً
جادتك كل سحابة هطالة حتى ترى عن زهرة متبسماً
لو كنت تدري من دعاك اجبته وبكيت من حرق عليه اذاً دما

قال : فغناه ، واقبل الجواري فرفعنا الستر ، وخرج الوليد فالقى نفسه في البركة فغاص فيها ثم خرج ، فلبس ثيابا غير تلك ، ثم شرب وسقي معبدا ، ثم قال له غنني ، فقال : ماذا ؟ قال : غنني :

عجبت لما رأتني اندب الربع النحيل
واقفاً في الدار ابكي لا ارى الا الطلول
كيف تبكي لاناس لا يملون الذميل ؟
كلما قلت اطمأنت دارهم قالوا : الرحيل

قال : فلما غناه رمى نفسه في البركة ، ثم خرج فردوا عليه ثيابه ، ثم شرب وسقى معبدا . وقال يا غلام ، احمل الى معبد عشرة الآف دينار، تحصل له في بلده، والفي دينار لنفقة طريقه ، فحملت اليه كلها وحمل على البريد من وقته الى المدينة .

ولكن هذه الحفاوة البالغة التي حظي بها الفنان ، لم تكن لتزيده الا تواضعا ، فقد كان معبد يؤمن بعبقريته الفنية ، كما كان يؤمن في نفس الوقت ، بمدى الفن اللامتناهي ، فانطلق ينهل من ينبوع الفن ، لا تثنيه امجاده ولا تقعد به شهرته ، انطلق الى مكة ليسمع من المغنين ويتعرف اليهم ، ولما وصل المدينة سأل عن مكانهم ، فقيل له بقعيقعان فمضى الى حيث يجتمعون، وطرق منزل صاحبهم ، وقال له : انا رجل اشتهي الغناء ، وازعم اني اعرف منه شيئا ، وقد بلغني ان القوم يجتمعون عندك ، وقد احببت أن تنزلني في جانب منزلك وتخلطني بهم ، وانه لا مؤونة عليك ولا عليهم مني، قال الاصفهاني: فلوى صاحب البيت شيئاً، ثم قال:

انزل على بركة الله . قال : فنقلت متاعي فنزلت في جانب حجرتي ، ثم جاء القوم حين اصبحوا واحداً بعد واحد، حتى اجتمعوا فانكروني وقالوا : من هذا الرجل؟ قال: رجل من اهل المدينة خفيف يشتهي الغناء ويطرب عليه، ليس عليكم منه عناء ولا مكروه، فرحبوا بي و كلمتهم، ثم انبسطوا وشربوا وغنوا،فجعلت اعجب بغنائهم واظهر ذلك لهم ، ويعجبهم مني حتى اقمنا اياما ، واخذت من غنائهم وهم لايدرون، اصواتا واصواتا ، ثم قلت لابن مريج . فديتك ، امسك علي صوتك :

قل لهند وترب‍ـ‍ـ‍ـ‍ـا قبل شحط النوى غدا

قال : اوتحسنُ شيئا ؟ قلت تنظر وعسى ان اصنع شيئا ، فاندفعت فيه ، فغنيته ، فصاح وصاحوا : وقالوا . احسنت والله .

واقام معبد عندهم شهراً اخذ منهم واخذوا منه ، ثم انصرف الى المدينة ، ولم تكن قعيقعان غير قرية من القرى المتاخمة لمكة ، فيها ماء ونخيل ، يؤمها المغنون فيقضون في ظلالها المورقة الندية ، اجمل مجالسهم الغنائية ، غير ان هذه المجالس لم تكن عامة جفلى يغشاها كل الناس ، وانما كانت مقتصرة على طبقة معينة ، طبقة الامراء والسادة ، ومن اوتي حظا من ثروة ونصيبا من جاه ، كما كانت مقتصرة على دور المطربين والمطربات ، والمغنين والمغنيات ، فالغريض حينما اقام في مكة ، كان ابن ابي العتيق وامثاله يطرقون قصره ، ومعهم الهدايا الثمينة والتحف الجميلة ، ويقيمون لديه ما طاب لهم المقام ، يأكلون ويشربون ويغنون ، وجميلة كانت تعد مجالس خاصة للغناء ، يقصدها عبد الله بن جعفر وانداد عبد الله بن جعفر ، وكان لها جواريها – جوقتها الموسيقية الخاصة – اللائي علمتهن ودربتهن ، فاذا ما طرق بيتها طارق ، اعدت مجلسا غنائيا من اروع المجالس ، ترتدي الجواري الملابس المصبغة ، بعد ان تتعطر وتتطيب ، وتضع على رأسها شعراً مستعاراً ، وتقوم وهي ممسكة بالعود ، تمشي وتغني ، والجواري تفعل فعلها ، والمجلس يفوح بالطيب ويعبق بالند ، وقد يحضر مجلس جميلة المغنون والمطربون ، فتأخذ الجواري بالاعواد، فتقول لكل فنان : هات ما عندك ، فيندفع سعيدبن مسجح في الغناء ، ثم ابن محرز ثم الغريض ثم ابن عائشة ... كل يغني القصيدة التي تطيب له واللحن الذي يختاره ، حتى اذا انتهى دور الغناء الافرادي ، جاء دور الغناء الثنائي ، فيغني نافع وبذيح بصوت

واحد ، وربما غنى ثلاثة من المطربين معا ، لحنا مشتركا ، وكانت جميلة تحرص على ان تكون الاصوات متقاربة في الغناء المشترك ، كأن تغني سلامة وحبابة او فند ورحمة وهبة الله ، فاذا غنى كل من كان في المجلس،انطلقت جميلة بعد ذلك في الغناء يعزف معها خمسون جارية .

ولم يكن معبد في معزل عن مجالس جميلة وغير جميلة ، فقد اتفق له ان غنى معها في مجلس من مجالسها الغنائية ، غني واياها قصيدة للاحوص ، حيث كان يرتل بيتا وجميلة ترتل بيتا آخر .

الى جانب دور الامراء والاثرياء ، ودور المغنين والمغنيات ، فقد كان هنالك مجالس غنائية عامة، كان المغنون يتصدون لحجاج بيت الله الحرام،فيرفعون عقيرتهم بالغناء ، كما فعل الغريض وابن محرز وغيرهما من مطربي ذاك العصر ، ولكن الغاية الحقيقية من هذه المجالس الغنائية العامة ، ما كانت تهدف الا الى الدعاية ، اذ كان المغني يحرص على ذهاب اسمه في الآفاق ، ولم يكن هناك افضل من مواسم الحج .

اما مجالس الخلفاء ، فقد كانت غاية في الروعة ، كانت تعد حسب هوى الخليفة فالخليفة الحريص على سمعته ، يتجنب الجهر بما هو في سبيله ، إذ كان يستدعي المغني فيما اذا هبط مكة مرا ليستمع اليه ، ومنذ اليوم الذي تقلد فيه يزيد بن عبد الملك مقاليد الخلافة ، خرج خلفاء امية على التقاليد المتبعة ، اذ اذن كما روت كتب التاريخ للندماء في الكلام والهزل في مجلسه والرد عليه ،بعد ان كان الملوك يقيمون بينهم وبين ندمائهم الاحجبة .

عرف معبد هذه المجالس الغنائية على مختلف انواعها ومتباين اشكالها ، عرف مجالس الخلفاء الاثرياء والمغنين والمغنيات ، وكان له في كل مجلس من هذه المجالس اثر يذكر ، فاذا ماسخر الفتيان الاغرار من قيمته الفنية، حينما فقد موهبته الصوتية ، فان وسطه الفني لم ينسه فقد شيعه خليفة وبكته غناء قينة .

سلامة وحبابه

مضت سلامة ، ترقب المدينة الغافية الراقدة ، والقمر يرسل على رود ، انواره الفضية الاخاذة ، فتغمر الارجاء وتعم الانحاء ، فالتفتت ذات اليمين وذات الشمال ، لتتملى تلك المغاني العزيزة الحلوة ، ومن بعيد ، من هنا وهناك اطلت عليها الذكريات فاسبلت الجفنين على دمعتين ، وبغتة جاشت خواطرها وفاضت مشاعرها ، فاندفعت تغني تلك المعزوفــة التي طالما رددتها تحت سماء بلدتها المحبوبة ، فماجت الاجواء بالاصداء ، واستيقظت المدينة ، على النغم الساحر ، فهب النيام ، يعدون ويتساءلون!

ترى ما الذي عرى سلامة ؟ هل من خطب ؟ هل من جديد ؟

ولما انتهى المطاف ، الى حيث تقف سلامة ، راحوا يصغون الى اغنية الوداع ، الى الاغنية الرقيقة اللطيفة الناعمة ، ادرك اهل المدينة ان مطربتهم ازمعت رحيلاً قصيا ، وانها ستمضي دون ما أوبة ، وان تلك الليالي العذاب التي كانت تحييها ، لن تتألق انوارها بعد اليوم ، فعزت عليهم هذي النهاية المؤلمة ، التي ما كان يدور بخلدهم انهم سيصلون اليها ، عز عليهم ان تذهب هذه المغنية التي اضفت على مدينتهم السحر والجمال والرقة والدلال ، الى بلد بعيد ، دونه المفاوز والمهامه بآخر لحن من الحانها عادوا إلى مدينتهم يرجعون ما غنت ويرددون ما قالت ، عادوا وفي آذانهم دوي ذاك الصوت الحنون الشجي ، اما سلامة ، فقد القت برأسها فوق صدرها ، وراحت في شبه غيبوبة طويلة مديدة ، تتوالى في خاطرها ، ايامهـا الغابرة ، لوحـة لوحة ، وصفحة صفحة ومن خلال صور هذه الايام ، اطل عليها اولئك الذين نعمت بحبهم وطابت بعطفهم ، اطلت عليها صور هؤلاء الاعزاء الاحباء ، مــتراقصة تراقص السراب ، متموجة تموج الرؤى ، بدا الاحوص في غرامــــه الجنح ، وابن قيس الرقيات في غيرته اللاذعة ، وذاك القس العاشق المتيم ، الذي عاف الزهد والنسك والتقشف ، ليتغنى بمحاسنها ويشيد بمآثرها ، ومن بعيد ، من اعماق الماضي ، لاحت

لسلامة هذي الصور المثيرة المغرية ، فراحت تتساءل في همس :

اتراني اجد في تلك المدينة العظيمة ، نظير القس والاحوص وابن قيس الرقيات؟

اتخفق القلوب بحبي في الشام كما خفقت في الحجاز ؟

وهل ترنو الي الانظار هناك ، كما رنت الي هنا ؟

كانت هـذه الاسئلة ترود مخيلة سلامة ، وهي في طريقها الى دمشق ، وكانت كلما القت بنظرة على ما حولها ، شعرت بان القافلة تحث الخطى وتغـذ السير ، وان البلدة التي احبتها ، باتت بعيدة ، بعيدة جـداً ، فتطرق واجمة وقـد ساورتها وحشة اليمة وكآبة حزينة ، كانت القافلة تمضي بسلامة الى حاضرة الملك ، تمضي بالمغنية الى ذاك المسرح المتألق الانوار ، لتلعب دورها عليه ، وما كانت سلامـــة بالمرأة المتطلعة وانما كانت امرأة طيبة قنوعة ، افلاطونية الروح يستهويهـــا الحب النقي الصافي ، وتجد في غرام القس واضراب القس ، المثل الاعـلى للحب المنشود ، المثل الاعلى لاحـلام الحب العذري ، الذي تورق به الدنيا ، وتتفتح له الحياة ، ويشرق العالم ، ويزهر الوجود أما الآن فهي تجهل المصير الذي يرقبها ، ان صوت القدر يدفعها الى الامام لتعيش في قصر الخليفة ، بين الجواري والقيان ، حيث الايام والليالي في عيد ابدي ، ولكن ما جدوى هذا العيد ، اذا لم يكن عيدها ؟ ان هواها في المدينة وربوع المدينة ، لا في دمشق وافياء دمشق .

هكذا كانت حياة سلامة ، حياة موزعة بين ماض تصبو اليه وحاضر لا تحدب عليه ، كانت سلامة تجد نفسها بعيدة كل البعد عن الوسط الذي تعيش بين ظهرانيه ، بعيدة عن دنيا الملك ومظاهر الملك ، وكل ما يتصل بتلك الحياة ، الحافلة الزاخرة ، وقد كان لهـذا الاحساس الذي ساور سلامة ، اثره البعيد في الصلات القائمة بينها وبين يزيد بن عبد الملك ، فقد لاحظ يزيد ، ان سلامة ليست له ، وان شيئاً خفياً يجوس صدرها ، فيجعلها في معزل عنه ومنأى منه ، أحس بان هوة قد فغرت فاها بينها وبينه ، وان الهبات التي اغدقها عليها والهدايا التي قدمها اليها ، لم تفتح له مغاليق قلب تلك المرأة الجاحـدة للفضل الناكرة للنعمة ، ترى ما الذي يصنع ؟ ايتركها وشأنها ؟ ان حبه لهـا من القوة بمكان ، وليس من السهل كما انه ليس من اليسير عليه ، نسيان هذا الحب ونفض يده منه ، ان حبا مثل حبه لن يطوى في غياهب النسيان ،

اذا لم يستعض عنه بحب آخر ، بحب يتلاشى فيه ويفنى ، بحب يجعل من سلامة ، خاطرة عابرة وذكرى غابرة . ولم تكن حياة يزيد بن عبد الملك ، بالحياة القاحلة الجرداء ، حيث لا زهر ولا شعر ، وانما كانت حافلة بشتى الالوان ، وما عليه غير اغماض جفنية ، ليستعرض الصور التي مرت عليه ، كان عليه ان يفعل هذا ، ليجد المرأة التي تهبه القوة ، المرأة التي يستعيض بحبها عن حب سلامة ، ولما طابت نفسه بهذه الفكرة رفع قليلا قليلا سجف الماضي المسبلة ، فبدت له عرائس احلامه في حقيقتها الحية ، واخذت غلالة هذه العرائس تنفرج شيئاً فشيئاً وتنداح وتنداح ، لتظل مستقرة في هالة الحلم ، صورة واحدة ، صورة حبابة ، وبدت حبابة ليزيدمن اقصى ارجاء تصوراته وهي تنطلق عاصفة صاخبة ، خفيفة كالنسيم رشيقة كالفراشة تلوب وتدور ، والدف بين يديها يعلو ويهبط ، وتلك القامة الهيفاء والنظرة النجلاء ، والساق المفتولة العارية . . . لقد كان كل شيء في هذه المخلوقة يثير الخواطر ويلهب المشاعر ، وعلى حفيف هذه الصورة الحلوة ، اغفى يزيد ونام .

كان يزيد بن عبد الملك من اولئك الخلفاء الذين وصفوا باللهو ، وقد ذهب بعض المؤرخين الى وصمه بالفسق ، فقالوا : كان يزيـد بن عبد الملك خليع امية ، شغف بجاريتين قطع معهما زمانه ، ومهما تكن وجهة نظر المؤرخين ، فالامر الجدير بالملاحظة هو ان يزيد عاش حياته ، كما يحياهـا اولئك الفتيان الذين مهد لهم الوسط الذي درجوا فيه ، افقا رحبا لنزواتهم وجواً طلقا لرغباتهم ، كانت عاتكة ام يزيد ، من احب الناس إلى عبد الملك ، فكان نصيب يزيـد من عطف ابيه اوفر من نصيب سائر اخوته ، وكان لهذا الحظ اثره في مجرى حياة يزيد اذ جعـل منه رجل حريم اكثر منه رجل دولة ، فقد تولى الخلافة وهو في الثلاثين من عمره ، حيوية متدفقة متوثبة ، وسلطة تناهت اليه ودنيا اقبلت عليه ، لقد عانى مرارة الحرمان ؛ في ظل حكم اخويه ، الوليد وسليمان وذاق شظف التقشف في ظـل عمر بن عبد العزيز ، لقد ذاق هذا وعاني ذاك ، وهو المرهف المنعم ، الذي كان يلاقي من حدب والده وحنان امه ، ما لم يلق مثله اي اخ من اخوته ، والآن ، الان وقد بسط يده على كل شيء ، ودانت له الرقاب وعنت الاعناق ، ماذا عساه يفعل ؟ أيسير على غرار سلفه عمر بن عبد العزيز ، فيعيش حياته في جوع وظمأ ؟ ان كل شيء حوله يناديه ، ويهتف به ويدعوه اليه ، وما كان في وسع رجل نظير يزيد ، انيقاوم الاغراء

الصارخ في كيانه ، فقد كانت المرأة تعيش فيه ، في دمائه ، وهو اذ يستجيب الى اغرائها ، انما يستجيب الى طبيعة تأصلت فيه ، اما المجد فلم يكن عند يزيد غاية قائمة بذاتها ، بل كان وسيلة للتمتع بالمرأة ، فهو لاجل المرأة لا يتورع عن ان يذيع الى الولاة بان (يعيدوا الناس الى طبقتهم الاولى ، اخصبوا ام اجدبوا ، احبوا أم كرهوا ، حيوا ام ماتوا) ، وهو لاجل المرأة لا يستنكف عن الصدوف بوجهه عن اقوال المخلصين من اصحابه ، وتعريض نفسه لتحامل المغرضين من اخصامه ، وهو لاجل المرأة يضحي بكل شيء ، بالملك والسلطان . غنت له حبابة ذات يوم ، فاهوى ليطير فقالت له يا امير المؤمنين : لنا فيك حاجة ، فقال ! والله لاطيرن ، فقالت ! فعلى من تدع الامة ! قال ! عليك

ولم تكن حبابة بالمرأة التي تقدر المسئوليات ، وتحفل بالتبعات ، كانت امرأة متطلعة متشوفة ، تنشد الرفعة والجاه ، كان صدرها يمور بالرغبات وينضج بالصبوات وفي سبيل ما يضطرب في صدرها ، كانت تضحي بكل شيء ، فهي لم تأسف على المدينة اذ غادرتها الى دمشق ، ولم تأس على اولئك الاصحاب الذين كانوا لها كما كانت لهم ، كانت وهي في طريقها الى الشام ، لا تحلم الا بفكرة واحدة ، كانت تحلم في ان تجد في الخليفة الشخصية التي تؤمن لها ، ما تصبو اليه من ترف وسرف ، فلما التقت بسلامة في قصر الخليفة ، كان اول ما عمدت اليه ، ان استخفت بها وسخرت منها ، غير حافلة بحق التأديب وحرمة التعليم . هذا وسلامة ، استاذة حبابة . اما الخليفة هذا الانسان الذي كان يأمل ان يجد في حبابة ، مدى لعواطف لم تلق صدى لدى سلامة ، فقد طاب نفسا بهذه المخلوقة المرحة اللعوب ، ونعم بالا بهذه المرأة الوامقة الطروب ، احس يزيد بان قوة خفية تجذبه الى حبابة ، وتربط حياته بحياتها ومصيره بمصيرها ، وبالرغم من هذا الاحساس ، فقد ظل بادىء ذي بدء حريصا على كبت مشاعره ، فلزم جانب الحذر باسباب الحيطة ، ولكن عين حبابة الذكية الفطنة ، ادركت ما يخامر قلب يزيد ، ادركت بغريزتها النسائية اليقظة ، ان الرجل الذي امامها فقد الثقة بالمرأة ، وهو الذي لا يقوى على الحياة بدون امرأة ، وان كبرياءه المنهارة بصمت ، احوج ما تكون الى بلسم ، وعلى هذا الضوء مضت حبابة تنثر الطلاسم ، هنا وهناك ، مستغلة ما حبتها اياه الطبيعة ، من جمال وجه وطيب صوت ، وهكذا استطاعت حبابة في النهاية ، لا ان تطرق باب قلب يزيد ،

بل ان تقيم في سويداء هذا القلب ، فاحتلت مكان سلامة ، وغادرت طيور الحب القديم وكرها ، لتفسح المجال لطير جديد ، جاء برقى لا عاصم لها .

ومضت الايام تباعـا ، مشرقة زاهية ، لا شيء يقض مضجع حبابة ، وينغص راحتها ويحرق روائع حياتها ، فقد وجدت الفنانة ، في قصر الخليفة وقلب الخليفة ما كانت تحلم به وتصبو اليه ، فاهوت على ينبوع السعادة ، تعلّ منه وتغب وانطلقت في اجواء الافراح ، ترسل دنياها نغما ، ولكن هذا الينبوع الذي كان يتدفق في امن ودعة ، ما لبث ان اضطرب واعتكر ، فاكفهرت الآفاق المشرقة ، واقفرت الارجاء الاهلة ، فلم يعد الصبح يحمل معه همسات القلب ، ولا الليل يطوي معه رعشات الحب ، فقد اطل من اعمـاق الظلام ، شبح مقيت ومخيف ، شبح اولئك الذين عز عليهم ان ينصرف الخليفة عن شؤون السلطان ، الى امرأة تأخذه عـن نفسه وتشغله عن ملكه ، فينسى الرعية وامور الرعية وقد كان مسلمة شقيق الخليفة من اكثر اولئك الناس غيرة عليه ، كان هذا الاخ الفارس البطل ، يدرك النتائج التي ترقب شقيقه ، فيما اذا ظل منصرفا الى ما هو في سبيله ، فلما بصر بالخطر الذي يحيق بهذا الاخ مضى اليه قائلا : (انك وليت بعقب عمر بن عبد العزيز وعدله ، وتشاغلت بالاماء عن النظر في الامور ، والوفود ببابـك ، واصحاب الظلمات يصيحون وانت غافل) واصغى يزيد الى نصيحة اخيه ، فردد بينه وبين نفسه : لقد قال مسلمة الحق فقد انصرفت الى الغناء والشرب وشغلتني امرأة عن كل شيء ، وانا حفيد معاوية وابن عبد الملك ، فهل يجمل برجل مثلي ، ان يهمل امر الخلافة ، لاجل كأس وقينة ؟ والتفت يزيد الى اخيه مسلمة وقال : صدقت .

وعاف يزيد الكأس كما عاف حبابة وانصرف عن المدام والغرام ، الى الملك والسلطان ، ولما رأت حبابة ان الطير قـد افلت من القفص ، وان يزيد صدف بوجهه عنها ، ثارت حفيظتها على مسلمة واخوان مسلمة ، وادركت انها اذا ظلت بعيدة عن عيني يزيد ، ضاعت ، وضاعت الى الابد .

ترى ما الذي تصنع؟ انقبع في زاوية مهملة من زوايا القصر ، وتتخلى عن الحياة التي نعمت بمفاتنها ؟ انها لا تريـد ان تكون ملكة الحب المخلوعة ، الملكة التي سلبت عرشها ، فانطوت على نفسها في حزن ، تحيا في عالم الذكريات والنسيان والاهمال ، هنا ، ذكرت حبابة بلدتها الطيبة واصحابها واصدقاءها ، اولئك الذين

احبوها وحدبوا عليها ، وخفوا الى وداعها ، جزعين آسفين ينشدون بين يديهـا القصائد ويرتلون الاغاني ، ذكرت كيف سخرت من دموعهم وعبثت بشجونهم ، وكيف ودت في سرها ، لو تطير على بساط ريح ، حتى تنتهي منهم وتنأى عنهم وها هي ذي الان تذكرهؤلاء الناس الواحد تلو الآخر ، ومن بعيد ، لمعت بخاطرها فكرة ، فراحت تتساءل :

لماذا لا اعوذ بهؤلاء الاصدقاء ؟

لماذا لا اطلق آخر سهم في جعبتي ؟

وكتبت حبابة الى صديقها الشاعر الاحوص ، كتبت اليه تعلمه واقع الحال ، وما كان في مقدور انسان نظير الاحوص ، تجاهل رجاء تتقدم به حبابـة ، كان الشاعر يقدرها ويعطف عليها ، كما كان يرجو نوالها وثوابها ومن وحي هاتين الرغبتين نظم الشاعر قصيدة لحنها له معبد .

الا لا تلمـه اليوم ان يتبلدا   فقد غلب المحزون ان يتجـلدا
بكت الصبا جهدي فمن شاء لامني   ومن شاء آسي في البكاء واسعدا
واني وان فندت في طلب الصبا   لاعلم اني لست في الحب اوحدا
اذا انت لم تعشق ولم تدر ما الهوى   فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا
فما العيش الا ما تـلذ وتشتهي   وان لام فيه ذو الشنان وفندا

وحفظت حبابة القصيدة واللحن ، وراحت تتحين الفرص المواتية ، لتغني بين يدي يزيد ، فقد كانت حبابة تعلم حق العلم ، ان حياتها معلقة على هذه القصيدة ، فلما كان يوم جمعة (تعرضت له عند خروجه الى الصلاة ، فغنته والعود في يدها) ، فما كان من يزيد الا ان صرف وجهه عنها ، ولكن حبابة لم تيأس ولم تقنط فاطلقت عقيرتها في الغناء ، حتى اذا ما رددت « وما العيش الا ما تلذ وتشتهي » ، انهار يزيد وتداعى ، واستجاب الى ذاك النداء الذي طالما تجاهله ، وهكذا ظفرت حبابة من جديد بقلب يزيد ، وعادت تلك الواحة التي اقوت معالمها واقفرت ارجاؤها ، سيرتها الاولى ، فازهرت واشرقت ، وانطلقت الطيور من الاوكار تغني وتغرد ولكن هذه البسمة الرقيقة المرحة ، التي رفت على شفتي الزمن ، ما لبثت ان تقلصت وتجهمت ، اذ سرعان ما خطف الموت حبابة من بين يدي يزيد ، وسرعان ما لحق يزيد بتلك المخلوقة التي شغفته حباً .

الغريض

مضت القافلة الى الطائف مريعة خفيفة ، والصبح ينثر اضواءه الضاحكة على الرمال المحرقة الوهاجة ، وعلى وقع منامم الابل وشدو الحادي ، كانت الثريا تردد بصوتها الرخيم ، قصيدة لعمر بن ابي ربيعة ، وبين الفينة والفينة تهب نسمة لطيفة وانية فتتلفت الثريا الى الوراء ، الى حيث يقيم عمر ، وفي نظرتها لهفة متسائلة :

ترى ما الذي يصنعه عمر ؟

ايذكرني كما اذكره ؟

وفي حسرة الشك ومرارته ، تلقي الثريا برأسها الجميل على صدرها العامر ، وتستغرق في تأملات متموجة مضطربة ، فقد كانت تعرف عمر حق المعرفة ، تعرف طبيعة هذا الشاعر المغامر الافاق ، الشاعر الذي لا صباح لحبه ، وبالرغم من هذا كله فقد كانت تريده وتحرص عليه لا لشيء ، بل لترضي كبرياء الجمال هذا الكبر الاصيل في في نفسها المتطلع دائماً وابداً ، الى من يتغنى به ويشيد بمحاسنه ، كانت الثريا امرأة تعبد ذاتها وتحب ان ترى آثار هذه العبادة في النظرات المتألقة والاحلام الحائمة والامال الباسمة ، واذا لم تجد من يصلي في محراب جمالها ، تصدت للناس تغويهم وتغريهم وتوقظ فيهم مشاعرهم الراقدة الكامنة ، حتى اذا اخذتهم عن انفسهم ، نعمت بالا وتوسدت عرشها ثملة دون ان تذوق جرعة . فكم كان فرحها عظيما وسرورها جسيما حينما خف اليها عمر ، خف الى الطائف ليسكب في اذنيها تراتيل الحب واناشيد القلب .

في مثل هذا الوسط الحافل بالحب والشعر ، وسط الثريا نشأ الغريض . كان فتى جميل الصورة ، حسن الصوت وكان من الذكاء بحيث استطاع في مدة قصيرة ترديد ما تترنم به سيدته من اغان ، والحان كلما خلت الى نفسها وآوت الى مخدعها

ولاحظت الثريا العبقرية الفنية الكامنة في هذا الفتى، فلم تشأ ان تدعها على هواهـا تنطلق حيثما اتفق، لا هادي ولا دليل، فدفعت الغريض الى جارها الفنان ابن سريج، املا منها بان يتخرج على يديه فيصبح فنانا مرموقا، ومضى الغريض الى حيث يقيم معلمه، يخدمه ويأخذ عنه، ويحذو حذوه في كل ما يرجع من الحان، ويظهر ان عبقرية الغريض التي تفتحت قبل الاوان، اثارت مخاوف ابن سريج، فقد خشي تقدمه عليه خشي (ان يأخذ غناءه فيغلبه عند الناس) وضاعف منه خوف ابن سريج، وجه الغريض، هذا الوجه الطري الندي الذي ما كان في الامكان تجاهل اثره في النفوس فماذا عساه يصنع تجاه هذا الخطر الذي يهدد مستقبله الفني ؟ لم يجد ابن سريج افضل من التجني على الغريض، ليحمله بذلك على الزهد به وبفنه، ولكن هذا التجني السافر كان من الوضوح بحيث ان الغاية منه لم تخف على الغريض، فما كان منه الا ان عاذ بالصبر واخذ باسباب الجلد، ولما رأى ابن سريج ان تحامله على الغريض لم يجد شيئاً لم يجد مندوحة من طرده، وعاد الغريض الى بيت مولاته شاكيا باكيا، ولما روى لها قصته، ادركت غرض ابن سريج، ادركت ان الحسد وحده هو الذي حدا به الى طرد فتاها، وما كان في مقدور امرأة نظير الثريا ان تسكت على هزيمة. اتترك الغريض وشأنه، وهي التي ربته وحرصت على تخريجه في الغناء ؟ اتدع مواهبـه الصوتية تذهب هباء ؟

قد يقف ابن سريج في وجه تقدم الغريض، ولكنه ليس في وسعه خنق عبقريته. إن لها نواحها الخاص، فلماذا لا تعلمه اياه؟ لماذا لا يأخذه ويغني عليه؟ ولما عرضت هذه الفكرة على الغريض رحب بها وهلل لها، اذ وجد فيها السبيل الى مجده الفني المنشود. ومنذ هذا اليوم راح الغريض يستمع الى مراثي الثريا واخواتها، حتى اذا حفظ هذه المراثي (احتذاها وخرج غناء عليها - كالمراثي) ثم راح يقلد استاذه ابن سريج حتى كان من الصعب العسير التفريق بين غناء الفنانين.

وهكذا لم يغن ابن سريج حذره، ولم يجده تجنيه على الغريض وطرده اياه، فقد مضى الغريض نحو ما وطن النفس عليه، مضى يشق طريقه في عالم الفن، يشق طريقه نحو تلك الآفاق الرحاب ليتألق نجمه في سماء الغناء العربي.

ولم يكن الغريض مدينا للثريا بازدهار مواهبه الفنية فحسب بل كان مدينا لها

بصداقة عمر بن ابي ربيعة ايضا، فقد وجد الشاعر العربي عمر بن ابي ربيعة (دون جوان) ذاك العصر، في المغني الغريض مداه الفني، ذاك المدى الغنائي الذي يرجع ما يضطرب في قلبه ويجيش في صدره، بحيث الف الاثنـــان (تروبا دور) العصر الاموي. كان عمر ينظم وكان الغريض يغني، ذاك يشيد شعرا بمفاتن من يحب وهذا يترنم غناء بتلك المفاتن .

كان عمر بن ابي ربيعة يحب عائشة بنت طلحة وما كان في مقدوره ان يتجاهبه بعد ان شاع امره وذاع خبره، فقد توعدته قبيلة عائشة، ولا قبل لمثله باتقاء هذا الوعيد ان الموت هو ثمن الحب في ذاك الزمن ، وعمر حريص على حياته حرص كل انسان يجد في الارض فردوسه المفقود ، ايسكت الشحرور ويدفن منقاره في صدره ؟ ان الشدو طبيعة اصيلة في نفس عمر، طبيعة لاسبيل الى كبتها ولا الى خنقها، وتلفت عمر ذات اليمين وذات الشمال، فلم يجد افضل من الغريض ربيب صديقته الثريا، وبسط الشاعر يده الى الفنان كما بسط له يده بالعطاء، فهل الفنان لهذه اليد المبسوطة، ولم يجد غضاضة فيما عرضه عليه الشاعر. كان عليه ان يلحن قصائد عمر في عائشة وان يرتلها بين يديها ، فقد روى صاحب الاغاني ان عمر بن ابي ربيعة سأل الغريض ان يغني عائشة بنت طلحة بشعره .

اجمعت خلتي مع الهجر بينا	جعل الله ذلك الوجه زينا
اجمعت بينها ولم نك منهـا	لذة العيش والشباب قضينـا
فتولت حمولهـــا واستقلت	لم تنل طائلا ولم تقض دينا
ولقد قلت يوم مكة لمـا	ارسلت تقرأ السلام علينا
انعم الله بالرسول الذي ار	سل والمرسل الرسالة عينـا

ووعد الغريض ان ابلغها هذه الابيات في غناء ، بخمسة الاف درهم ، فوفى الغريض له ونال جائزته ، كما نال جائزة مماثلة من عائشة نفسها -.

وكما اوفده عمر ، الى عائشة بنت طلحة ، فكذلك اوفده الى سكينة بنت الحسين ، فغناها شعره ، وكانت سكينة ، تدعو النسوة لسماع الشعر والغنـــاء ، غناها مرة :

الم يزينب ان البين قد افدا	قل الثواء لئن كان الرحيل غدا

فاعطته لكل بيت الف درهم . ولما زار الوليد بن عبدالملك « مكة » قدم عمر ، الغريض للخليفة وقال له (عندي اجمل الناس وجها واحسنهم صوتا ، فلما دعا به غنى الغريض :

اني لأحفظ سركم ويسرني   لو تعلمين بصالح ان تذكري

ولم ينس الغريض مولاته الثريا ، هذه المرأة التي ربته وتعهدت عبقريته ، وتحملت من جماله عنتا عظيما ، فقد ناح عليها وبكاها غناء ، حينما ماتت ،وقيل ان نواحه كان اشجى غناء ردده في حياته .

• • •

كان الغريض نظير غيره من الفنانين الذين عاشوا لغيرهم ، اكثر منهم لانفسهم ، فالفن ما كان متعته الذاتية المجردة ، بل متعة اولئك الذين يغدقون عليه الهبات ويجودون بالصلات ، بحيث ان شخصيته الفنية المستقلة ، هذه الشخصية التي تنطلق بكل حرية في الاجواء ، لتردد عواطفها وترجع مشاعرها ، كانت مقيدة باوضاع المجتمع ، كان الغريض ، مولى ، وليس للمولى من امره شيئا ، انه حقير مبتذل في نظر السادة ، بحكم وضعه الاجتماعي ، وحقير مبتذل في نظر ابناء وسطه ، بحكم المهنة التي يمارسها والصنعة التي يزاولها ، فالاحكام الاسلامية التي جعلت من الناس سواء ، كانت ضعيفة الاثر في العصر الاموي ، والعبقرية الفنية التي سمت بالفنان من الاغوار السفلى ، الى عالم الشهرة والمجد ، لم تمكنه من الظفر بالمساواة المطلقة ، وفوق هـذا كله ، فان حياة الفنان الاقتصادية - حياته المعاشية - كانت موقوفة على صبوات الامراء ونزوات السادة الاثرياء ، في هذه البيئة عاش الغريض ، كان مولى ، تحدر من اصل بربري ، وكان جميلا رائع الجمال « يصنع نفسه ويبرقهـا » دفعه اعتداده بجماله الى التخنث ، كان مثل « نارسيس » دائما وابدا ، يطل على الغدير ، يتملى محاسنه ويتجلى مفاتنه ، حتى اذا اخذته عن نفسه نضارته ، تحدى الطبيعة فاضفى عليهـا من صنع يديه ، ما جعله هزأة الهازئين وسخرية الساخرين ، وما كان في مقدور مجتمع نظير المجتمع الاموي ، ان يغضي الطرف عن مثل هذه النزوة ، اذ كان مجتمع رجولة وبطولة ، فلاحق المخنثين وناهضهم ، وكان نصيب الغريض من هذه المناهضة وتلك الملاحقة ، ان قضى شطرا من ايامه الاخيرة ، بعيدا عن مكة ، بعيدا عن ذاك الوسط الفني الذي احبه وهام به ، فقد كان نافع بن علقمة ، الذي ولي مكة حينا من

الدهر ، في زمن سليمان بن عبد الملك ، من اشد الولاة كرها للمخنثين ، نكل بهم وقسا عليهم ، فهرب الغريض واستخفى ، وقضى ملاوة من الزمن لا يبرح مكانه ولا يزايله ، فاستدرجه الوالي للظهور ، املا منه بالايقاع به ، ولكن هذه الحيلة لم تنطل على الفنان ، فهرب وهو لا يلوى على شيء ، هرب الى اليمن ، ليعيش في بلد لا يفهمه ولا يقدر فنه ، وقد كان من اليسير على الغريض ان ينسى مكة ، ولياليها الزاهرة ، لو وجد في اليمن وسطه الفني ، هذا الوسط الذي يتجاوب مع مشاعره المرهفة ، ولكن الغريض لم يجد شيئا من هذا ، فالاذن الموسيقية التي خص بها اهل الحجاز ، والظرف الذي عرف به اهل الحجاز ، كانا مفقودين في اليمن ، لا اثر لهما ولا ظل ، فكان الغريض اذا لقي حجازيا ، رحب به وهلل له ، كان يجـد في كل رجل من رجال تلك الرقعة المقدسة ، أرج الارض التي درج فوقها وشب عليها ، الارض التي اوحت اليه باروع ايات الفن ، وكان الغريض اذا الح به البين ورمضه الفراق ، ارسل دموعه سخية سخينة ، يبكي الاهل والوطن ، كما يندب حظه العاثر الذي القى به ، بين ظهراني قوم ، لا يفهمهم ولا يفهمونه ، يرونه وهو يحمل العود بيده ، فيقولون له : اتبيع آخرة الرحل ؟ ويرفع الغريض رأسه ، ثم ينكسه ويمضي ، ويمضي والاسى يحز قلبه ، على قوم لا يفرقون بين العود ومؤخرة الرحل التي يستند اليها الراكب ، في مثل هذه الساعات المثيرة ، كان الغريض يعود بنفسه الى الوراء ، الى ذلك الزمن السعيد الذي قضاه في ربوع الحجاز ، وكيف كان اهل تلك الرقعة من الارض ، يقدسون الفن ويمجدونه ، وكيف كانوا ينهدون من كل حدب وصوب ، للدفاع عن الفنانين ، فيما اذا نزلت بهم نائبة أو حاق بهم مكروه ، انه يذكر ذاك الوالي الذي امر باخراج المغنين من الحرم ، وكيف اجتمع الى معبد وابن سريج على « ابي قبيس » ليلة النفي فغنى معبد !

اترحل من ليلى ولما تزود   اجد البكا ان التفرق باكر

فتأوه اهل مكة ، ولما اندفع هو – الغريض – يغني :

ايهـا الرائح المجد ابتكارا   قد قضى من تهامة الاوطارا

ارتفع البكاء والنحيب ، حتى اذا غنى ابن سريج :

جددي الوصل يا قريب وجودي   لمحب فراقـه قد المـا

ليس بين الحياة والموت الا ان يردوا جمالهم فتزما

تعالى الصراخ في الدور بالويل والحرب ، واجتمع الناس الى الامير فاستعفوه من نفيهم ، فاعفاهم . انه الآن في اليمن يذكر تلك الليلة ، كما يذكر ، يزيد بن عبد الملك الذي زار مكة ، وكيف غنى مرآ بين يديه ، وعائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين ، ونساء مكة اللواتي كن يستمعن اليه ، وهو يغني شعر عمر بن ابي ربيعة ، لقد كانت ايام مكة تمر أمامه تباعا ، كل يوم في طياتـه عبق فواح ، لا بل في كل ساعة وفي كل دقيقة ، متعة فائقة ، ولذة شائقة ، كذلك كان ماضيه وذكرياته المتموجة المتراقصة ، تطرق حاضره الموجع الاليم ، فيستيقظ على تلك الضربات المتواصلة ، ثم يستغرق في ذهول طويل .

ولكن هذا الليل ، الذي خيل اليه ، الا صباح له ، ما لبس ان تلاشى ، فاشرقت السماء وتبددت الغيوم ، وعاد الزمن سيرتـــه الاولى ، عاد ليحمله الى الحجاز من جديد ، ولكن بعد ان زايلته زهرة الشباب ، وحماسة الفتوة ، فاذ به يقيم بقصر في اطراف مكة ، فيخف اليـه الناس ، ومعهم الهدايا ، فيقف الغريـض في قصره ، ليشرف على تلك المواكب التي أمت القصر ، لتحتفي بعبقرية الفن ، وقد توجتها الكهولة بغلالتها البيضاء ، وسارت في ركابها ، افراح المجد .

• • •

أخذ اسم الغريض ، ينتشر في أوساط مكة ، منذ اليوم الذي دخل فيه المأتم ، كانت تضرب دونه الحجب ، فيسترسل في الغناء ، حتى يفـتن كل من سمع ، ولم تكن للغريض ، في مطلع حياته الفنية ، طريقة غنائية خاصة ، عرف بها وعرفت به ، وانما كان يسير على غرار طريقة معلمه ابن سريج ، يقلده ويحتذيه وينحو نحوه ويجاريه ، حتى كان من الصعب العسير على الانسان ، التفريق بين المعلم ، التلميذ ، لمقاربتهما في الغناء ، ولما كثر غناء الغريض وعدل اليه الناس ، ذهب النقاد في أمر المطربين ، مذاهب شتى ، فانصار القديم ، اولئك الذين يسيرون في ركاب الماضي ويعتزون بتراثه ، كانوا من انصار ابن سريج ، يؤثرونه على الغريض ، لا لشيء ، بل لان له فضل السبق ، كانوا يقولون: لقد أخذ الغريض عن ابن سريج ، وغرف

من بحره ، أما انصار الجديد ، فقد كانوا يذهبون غير هذا المذهب ، ويرون غير هـذا الرأي ، كانوا ينظرون الى الغريض ، نظرتهم الى ممثل لجيلهم ، يعبر عن مشاعرهم ويتحدث عن عواطفهم ، انه قطعة حية منهم ، اما ذاك ، ابن سريج ، فلم يعد في عرفهم ، الا ارثا خالداً ؛ عاش لزمنه وانطوى مع هذا الزمن ، ومن خلال هذا وذاك ، كانت هناك آراء معتدلة ، آراء تضع الاشياء في نصابهـا ، فلا هي مسرفة في التشيع لابن سريج ، ولا هي مغرقة في نصرة الغريض ، كانت هذه الآراء تميل الى الاخذ باسباب النقد الفني المجرد ، النقض الموضوعي الذي لا يتأثر بالعوامل الشخصية والنزعات الفردية ، وكان الفريق الذي يعتد بمثل هذه الآراء ، يرى ان ابن سريج احكم صنعة ، والغريض اشجي غناء ، ولا كبير فرق بـــين فنانين ، لعب كل منهما دوراً خطيراً في تاريخ الغناء العربي ، فسكينة بنت الحسين ، كانت لا تفرق بين المطربين ، شبهت الاثنين « باللؤلؤ في أعناق الجواري الحسان ، لا يدري الانسان أي ذلك احسن » ، ومهما يكن الامر ؛ فالغريض كان مجدداً في الغناء العربي ، لم يكن مقلداً لابن سريج فحسب ، بل كان مبدعاً ايضا ، بما أدخله على الغناء العربي من اغاني الرهبان وغير الرهبان ، وبالرغم من هذا الخلاف العنيف ، بالرغم من تحامل ابن سريج على الغريض ، ونعته اياه بالتخنث ، وبالرغم من تحدي الغريض لابن سريج ووصفه اياه بالتقصير في الغناء ، فقد كانت بين المطربين ، ابن سريج والغريض ، ومطربي ذاك العصر ، وحدة فنية ، وحدة خليقة بان يطلق عليها اسم « اخوة الفن » ، كان النزاع بين فناني العصر الاموي ؛ نزاعا معنويا اكثر منه ماديا ، لم يكن ، احدهم ينازع الآخر ، على مورد رزقه ، ويعمل جاهداً على قطع هذا المورد ، وانما كان ينافسه على الشهرة وبعد الصيت من ناحية ، وعلى الابداع من ناحية اخرى ، كان فنانو العصر الاموي ، اذا ما تعرض الفن لخطر ما ، تضافروا واتحدوا ، وعاذوا بالرأي العام ، ينشدون نصرته ويطلبون معونته ، ضد وال لا يقيم للفن حرمة ، وكانوا يتداعون الى زيارة بعضهم بعضا ، بقصد التعارف وتبادل السماع ، فقد كتب ابن سريج ومعبد والغريض ، الى حنين الحيري ، يدعونه الى زيارة الارض المقدسة ، قالوا له : نحن ثلاثة وانت واحد ، فانت خليق بزيارتنا ، فذهب الكتاب مع النفقة الى الحـيرة ، حيث يقيم حنين ،

فلما تلاه لبى الدعوة ، وتوجـه الى الحجاز ، فخرج المطربون الثلاثـة ، مع رهط كبير من الاهلين ، لاستقبال الفنان على مرحلة من المدينة ، و كان استقبالاً حافلا رائعا ، وصفته الكتب الادبية « لم ير يوم كان اكثر حشداً ولا جمعا من يومئذ » ، ودخل الموكب ، بنزل سكينة بنت الحسين ، فاذنت للناس اذنا عاما ، فغصت الدار وصعد الاهلون فوق السطح ، ولما آب حنين الى الحيرة ، زاره بن سريج ، ونزل ضيفا عليه ، فقربه حنين الى الوالي ونال جوائزه ، وبعد ان قضي ابن سريج مدة في ضيافة حنين ، جهزه حنين وودعه .

كذلك كانت حياة الفنانين في العصر الاموي ، حياة احكمت أواصرها اخوة فنية لا تنفصم ، فاذا كان ثمة خلاف بين ابن سريج والغريض ، فان هذا الخلاف لم يدخل مرحلة التناحر ، كما كان عليه الحال في العصر العباسي .



العصر العباسي

في منتصف القرن الثاني للهجرة ، شهد تاريخ الانسانية ، انبثاق فجر مـــدينة جديدة ، مدينة لعبت أروع درر في تاريخ الحضارة ، كانت هذه المدينة التي شيدها المنصور في العام الخامس والاربعين بعد المائة ، تقع في منتصف عالم الحضارة القديم، حيث التقت المعارف وتعانقت الافكار ، وتحدر اليها اعظم تراث عربي ، الا وهو تراث الامبراطورية الاموية . كانت هذه المدينة ، بغداد ، عاصمة الدنيا ، كما قال ذلك الخطيب البغدادي في تاريخه ، وكانت وارداتها السنوية تربو عـلى ثمانية عشر مليون دينار ، كما روى ياقوت الحموي ، . قال محمد بن سلام : سمعت الوليد يقول: ادخلت بغداد ؟ قلت : لا . فأجاب ! كأنك لم تر الدنيا . وقال محمد بن ادريس لصاحبه : يونس: ادخلت بغداد ؟ فأجاب : لا . قال ابن ادريس : يايونس مارأيت الدنيا ولا رأيت الناس . وقيل لرجل كيف رأيت بغداد ؟ فأجاب ! الارض كلها بادية ، وبغداد حاضرتها . بمثل هذا الوصف ، وصفت عاصمة العباسيين ، عروس الاساطير وجنية الاحلام ، فقد افتن الخلفاء العباسيون ، في ابداع حاضرة ملكهم وعاصمة سلطانهم ، فانفقوا الالوف المؤلفة على القصور والبساتين ، وجعلوا من تلك الرقعة من الارض التي اطلق عليها فيما مضى ، « هبة الله » فردوسا زاهيا زاهرا ، يمور بالمفاتن ويفيض بالمباهج ، فقد روت كتب التاريخ ، ان نفقات قصر السلام ، اربت على خمسين مليون درهم ، وان تكاليف قصر الثريا ، قدرت باربعـين الف دينار، وإن ما صرف على القصر الحسيني تجاوز العشرين مليون درهم كما روت كتب التاريخ أيضا. ان المساحة المربعة لبعض هذه القصور بلغت ثلاثة فراسخ، وانها كانت تحتوي على أشجار من الفضة وفرسان من التماثيل وحير الوحش وبرك وافيال وسباع، وما الى ذلك من المظاهر التي ان دلت على شيء ، فانما تدل على ترف لا يبارى وسرف لا يجارى ، فقد توفرت لهذا العصر ، وسائل لم تتوفر لغـــيره من عصور التاريخ العربي ، فقد تبدد الطابع العنصري الذي كان مسيطرا على الحياة العامة في العصر الاموي ، وحل محله طابع المواطن العباسي ، مهما كانت جنسيته ومهما كانت

ارومته ، واختلطت العناصر وامتزجت ببعضها بعضا ، عن طريق التزاوج ، الامر الذي ادى ، الى نشوء اجيال جديدة، اجيال لغتها عربية وقوميتها اسلامية ،فكان من جراء هذا ، ان تبدلت نظرة العرب للاشياء وتأثرهم بالاشياء ، وساد الاستقرار الداخلي والخارجي ، في العصر العباسي ، بالنسبة الى ما كان عليه في العصر الاموي، فانصرف الخلفاء الى تعزيز حركة الترجمة والتأليف ، فازدهرت الحضارة ونمت ، بفضل الثروة والثقافة ، فعب اولئك الذين مكن الله لهم في الارض ، من ينبوع ما تحدر اليهم من طارف وما تناهى اليهم من تليد ، فقد كانت الدنيا ملك ايمانهم ، تشرق الشمس على صبوح وتغرب على غبوق ، والعمر زهرة والحياة بسمة ، وما بين كأس مترعة ، سرعان ماتنضب ، وكأس تترقرق فيها صبابة ، سرعان ماتطفح، ما بين هذا وذاك ، كانت الايام تنساب ، حالمة هابسة. في مثل هذا الافق الرحب، كانت الموسيقى ، تمتد وتنداح ، لتتجاوب مع طبيعة العصر الذي انبثقت فيه ، كانت الموسيقي تمتد ، لتكون صدى حضارة ، نفضت عنها رمال الصحراء ، وآوت الى افياء وارفة ، بعد ان ودعت تلك الالحان البطيئة الكسلى ، تلك الالحان التي ما كانت تتحرك بها الشفاه ، الا على حركة وقع مياسم الابل ، فقد وجدت في بغداد الملاذ الامين ، الملاذ الذي ترتاح اليه وتطمئن ، فترامت على مفاوز خضراء ، مفاوز مخضلة ندية رطبة ، وصف ابو حيان التوحيدي في كتابه الامتاع والمؤانسة، صورة من صور ذاك العصر فقال : (احصينا ونحن جماعة في الكرخ ، اربعمائة وستين وخمسة وتسعين من الصبيان البدور ، يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة ، هذا سوى ما كنا لا نظفر به ، ولا نصل اليه ، لعزته وحرسه ورقبائه، وسوى ما كنا نسمعه بمن لا يتظاهر بالغناء ، والضرب ، الا اذا نشط في وقت وثمل في حال) ، وذهب الجاحظ الى القول : ان اهل بغداد كانوا يعدون وراء باعة الجلاب ، ليستمعوا الى اصواتهم الحسنة ، وروي ان ابن الكنات ، غنى على جسر بغداد (وكان على دجلة ثلاثة جسور ، فانقطعت الطرق وامتلأت الجسور بالناس ، فازدحموا عليها واضطربت حتى خيف عليها ان تنقطع لثقل من عليها من الناس) ، وهكذا ارهفت الحضارة اذن المواطن العباسي الموسيقية ، فصار يعدو وراء باعة

الجلاب ، كما صار يزاحم بعضه بعضا فوق الجسور ، ليصغي الى صوت جميل ، وينتشر هنا وهناك ، في الاصائل الضاحية ، ليلهو ويلعب ويسرح ويمرح ، لقد القت الحضارة بظلالها على ذاك العصر ، فاورقت الحياة في واحات القصور العاجية ، فعبر الفن عن دنيا هذه الواحات ، فكان صورة حية ، لعالم الخلفاء والامراء والسادة ، هذا العالم الارستقراطي الذي اطلقوا عليه اسم طابع العصر .

ولكن الى جانب ، هذه المعرفة وتلك الثروة اشياء اخرى ، ساعدت الفن على المضي في انطلاقه ، نحو ما رسمته له طبيعة العصر ، كان معظم خلفاء الدولة العباسية من ذوي الاذن الموسيقية المرهفة ، لا بل كانوا من اصحاب الصنعة في فن الغناء ، فقد كان الخليفة الواثق بالله ، من اولئك الذين دونت لهم صنعة في الغناء ، روى صاحب الاغاني ، قال : اسحاق بن ابراهيم الموصلي دخلت يوما دار الواثق بالله بغير اذن ، الى موضع أمر ان ادخله اذا كان جالسا ، فسمعت صوت عود من بيت ، وترنما لم اسمع احسن منه ، فاطلع خادمه رأسه ، ثم رده وصاح بي ، فاذا انا بالواثق بالله يغني فقال الواثق :

اي شيء سمعت ؟ فقلت سمعت ما لم اسمع مثله قط حسنا ، فضحك وقال : وما هو ؟ انما هذه فضلة ادب وعلم ، مدحه الاوائل واشتهاه اصحاب رسول الله والتابعون بعدهم ، وكثر في حرم الله عز وجل ومهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اتحب ان تسمعه ! فقلت بلى والله الذي شرفني بخطابك ، فقال ياغلام ! هات العود ، واعط اسحاق رطلا ، فدفع الرطل الي ، وغنى في شعر لابي العتاهية بلحن صنعه فيه :

وتقول عريب المأمونية : صنع الواثق بالله مابة صوت ما فيها صوت ساقط ، وقد صنع في هذا الشعر :

هل تعلمين وراء الحب منزلة — تدني اليك فان الحب اقصاني
هذا كتاب فتى طالت بليته — يقول يا مشتكى بثي واحزاني

ويذهب المؤرخون الى القول : ان الواثق بالله كان اذا اراد ان يعرض صنعته على اسحاق نسبها الى غيره وقال : وقع الينا صوت قديم من بعض العجائز فاسمعه ، وامر من يغنيه اياه .

ويقول اسحق الموصلي ان الواثق كان من اعلم الناس بالغناء ، وكان من احذق

من غنى بضرب العود .

اما الخليفة المنتصر بالله ، فقد روى الحسن المهلبي انه كان حسن العلم بالغناء ، وما يقال عن المنتصر يقال ايضا عن المعتز بالله ، الذي ذكر انه كان يغني اصواتا ، والمعتمد الذي كانت له يد في الغناء وصنعة حسنة ، عارض الفحول من القدماء والمحدثين ، وقد وصف بانه كان يأتي بالعجب العجاب .

اما اولاد الخلفاء الذين اشتهروا بصنعة الغناء ، فهما ابراهيم بن المهدي ، واخته علية بنت المهدي ، وقد قيل (لم ير في جاهلية ولا اسلام اخ واخت احسن غناء من ابراهيم بن المهدي واخته علية) وصف صاحب الاغاني ابراهيم بن المهدي بقوله : (ان ابراهيم بن المهدي اشد خلق الله اعظاما للغناء واحرصهم عليه واشدهم منافسة فيه ، وكانت صنعته لينة) واما علية فقد وصفت (بحسن الغناء وجودة الضرب) وكان لعلية وابراهيم اخ ، هو يعقوب بن المهدي ، كان من احذق الناس بالزمر ، وكان للرشيد ولد هو ابو عيسى ، كان جيد الصنعة له اغان منسوبة اليه ومعروفة به ، وكذلك عبد الله بن موسى الهادي ، كان من (اضرب الناس بالعود واحسنهم غناء) .

وقد كان للموقف المتسامح الذي وقفه فريق من رجال الدين ، من فن الغناء ، هذا الموقف الذي املته الاوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على العصر العباسي ، اثره البارز في تقدم الموسيقى ، فالتزمت الذي لازم اولئك الذين حرموا سماع الغناء ، وقالوا بعدم جوازه ، ما لبث ان تضاءل الى حد بعيد ، فقد روت كتب التاريخ ان عدداً من الثقات مارسوا فن الغناء واخذوا منه باوفر نصيب ، فقد قيل ان ابراهيم بن سعد كان يبيح السماع ويضرب بالعود ويغني به ، سأله الرشيد ذات مرة (من كان من فقهائكم ينكر الغناء ؟ فأجاب : من ربط الله على قلبه) ويقول صاحب نهاية الارب ، ان ابراهيم بن سعد ، اقسم وهو في بغداد (لا احدث ببغداد ما اقمت حديثا واحداً ، حتى اغني قبله) ووصف محمد بن اسماعيل بن علي المأمون بأنه (كان عالما بالفقه والغناء جميعا) . ان هذه القصص التي روتها لنا كتب التاريخ والسير والادب تعطينا صورة واضحة ، عن التطور الذي طرأ على عقلية رجال الدين في العصر العباسي ، فقد سئل مالك بن انس عن السماع فقال (ما ادرى اهل العلم ببلدنا لا ينكرون ذلك ولا يقعدون عنه ولا ينكره الا غبي جاهل

او ناسك غليظ الطبع) وروى الحافظ ابو الفضل قال . مررنا مع الشافعي وابراهيم ابن اسماعيل على دار قوم وجارية تغنيهم :

خليلي ما بال المطايا كأنهـــا   نراها على الاعقاب بالقوم تنكص

فقال الشافعي : ميلوا بنا نسمع .

فلما فرغت : قال الشافعي لابراهيم : ايطربك هذا ؟ قال ابراهيم : لا . فأجابه الشافعي : فما لك حس .

وهناك حكاية تروى عن الامام احمد بن حنبل فقد قيل : كان للامام احمد بن حنبل جار ، وهذا الجار مغرم بالشراب كلف به ، فكان اذا وافى المساء وعاد من عمله الى منزله ، بسط المائدة ووصف الصحون والقناني ، وراح يغني قول العرجي :

اضاعوني واي فتى اضاعوا   ليوم كريهة وسداد ثغر

واتفق لهذا الجار ان قبض عليه الحرس ، فلم يعد الى منزله ، ولم يسمع الامام غناءه على جري عادته ، فاستوحش له وقال لاهله ما فعل جارنا الكيال ؟ فقالوا : اخذه العسس وهو بالحبس . فانطلق الامام الى صاحب الشرطة عيسى بن موسى ، وكان ابو حنيفة قليلا ما يأتي ابواب الملوك : فخف اليه عيسى واقبل عليه وسأله عما جاء بسببه فقال : اصلح الله الامير ، ان لي جارا من الكيالين اخذه عسس الامير ليلة كذا . فوقع في حبسه . فامر عيسى بن موسى باطلاق كل من في الحبس اكراما لابي حنيفة ، وانطلق الكيال الى الامام شاكراً ، فلما رآه الامام قال له : اضعناك يافتى ؟ فقال الكيال : لا والله . ولكنك بررت وحفظت .

وروى صاحب عيون الاخبار ، قال علي بن هشام : كان عندنا في مرو قاض يقص فيبكينا ، ثم يخرج بعد ذلك طنبوراً من كمه فيضرب به ويغني ، وكان يقول في غناه ما معناه : ينبغي مع هذا الغم قليل فرح .

كذلك كان شأن رجال ذاك العصر ، تسامح وتساهل ، فلا تزمت ولا تعصب ، اجازوا في هذا العصر تحسين الصوت في القراءة والاذان ، كما اجازوا السماع ، وقد وصل الامر بقاض ولي قضاء المدينة ومكة في زمن المنصور ان ظل يتابع انشاده دون ان يحفل بانذار صاحبه الذي هدده بقوله :

تغني اصلحك الله ؟ وانت في جلالك وشرفك ؟ اما والله لاحدون بها ركبان نجد .

• • •

كان العصر العباسي عصراً جديداً في تصوره وتصويره للاشياء، فقد تناهت الى هذا العصر حضارات واشجة في القدم، فمن افريقية الى فارسية الى هندية الى مصرية، كما تناهى الى هذا العصر تراث الامبراطورية الاموية، أعظم امبراطورية عرفت في تاريخ العرب، وقد كان من جراء هـذا التطور الذي طرأ عـلى دنيا العرب والمسلمين في العصر العباسي، ان تقدم فن الغناء بتقدم الحضارة، واتسعت آفاق هذا الفن، باتساع الثروة وبسطة العيش، فلم يعد المواطن العباسي ينظر الى ما يقع تحت متناول يده، نظرة الجاهلي أو الاموي، بل راح يتطلع الى الاشياء تطلعا جديداً يتجاوب مع طبيعة العصر الذي يعيش بين ظهرانيه، هـذا العصر الذي قضت الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فيـه، بتبدل القيم وتحول المفاهيم واختلاف المقاييس، لم يعد المواطن العباسي ليقنع بالغناء البسيط الساذج، الذي يتغنى به أبناء الاجيال الغابرة، لم يعد يجد في الغناء القديم، صدى لما يجيش في صدره من عواطف وما يضطرب في قلبه من مشاعر، لا بل انه لم يعد يجد في ذاك الغناء الغذاء الروحي لحياة ظفرت بحظ من فكر ونصيب من ثقافـــة، وبات من العسير على احساسها السمعي، تذوق الحان لاحظ لها من ابداع مبتكر، فقد ولت اسطورة الالهام الى حيث لا معاد، وبات الفنان في هذا الزمن يدرك حق الادراك، ان تهاويل الوحي وتصورات الوهم، لا تؤهل لعمل فني ما، لعمل يصلح أن يكون تحفة. خالدة أبدية الاطراد والجدة، أصبح الفنان في هذا الزمن يعلم حق العلم أن المواهب الطبيعية، مهما سمت بصاحبها، ومهما حلقت برجلها، لن يقدر لهـا البقاء؛ اذا لم تعزز بعمل ارادي، لا أثر للعفوية فيه، اذا لم تعزز بصنعة يتوفر على ممارستها الفنان، توفر الصانع الحاذق عـلى مهنته؛ وقد اشار التوحيدي في مقابسة السماع والغناء وأثرهما في النفس وحاجة الطبيعة الى الصناعة، الى أهمية أثر الصنعة في الفن فقال: فالموسيقار إذا صادف طبيعة قابلة ومادة مستجيبة وقريحة مواتية وآلة منقادة، افرغ عليها بتأييد العقل والنفس، لبوسا مونقا وتاليفا معجبا، واعطاهـــا صورة معشوقة، وحلية مرموقة، وقوته في ذلك تكون بمواصلة النفس الناطقة، فمن هنا احتاجت الطبيعة الى الصناعة). ولم يقف الامر بالتطور الذي طرأ عـــلى الغناء العربي في العصر العباسي، عند حد مناهضة العمل الفني المرتجـــل، العمل الذي

يستمد عناصر وجوده من الخاطرة العفوية ، بل تعداه الى نقد الاسلوب الغنائي القديم ، الذي لا يتمشى مع واقع العصر الحي ، فقد حرف كما يقول صاحب نهاية الارب (مخارق وعلوية القديم كله ، وصيرا فيه نغما فارسية ، فاذا اتاهما الحجازي بالغناء الاول الثقيل قالا له ! يحتاج غناؤك الى فصاده) .

وصار الولد ينكر على الوالد طريقته الموسيقيـــة العتيقة ، فقد وصف (حكم الوادي) اهازيج والده بالتخنث والميوعة ، وما الى ذلك من الصفات التي ان دلت على شيء ، فانما تدل على التحول العميق الذي طرأ على عقلية ونفسية العرب في العصر العباسي ، وعلى تلك المعركة العنيفة التي قامت بين القديم والجديد . لقد كانت المعركة بين القديم والحديث في العصر العباسي معركة عنيفة لا هوادة فيها ولا لين معها ، فالقدامى كانوا يحرصون كل الحرص على تراثهم ، لانـه كان حياتهم ، وهم اذ يدافعون عنه انما يدافعون عن هـــذه الحياة ، كان قديمهم كل ما ملكت ايمانهم ، انه الجنة التي نعموا بها ، وهم في زهوة الفتوة وحماسة الشباب ، فكيف يتخلون عن هذه الجنة ، ليهبطوا رقعة لا عهد لهم بها من قبل ، انهم يرهبون المجهول ويخشونه ، لقد فقدوا الجرأة واعوزهم الاقدام ، فبقوا حيث هم ينكرون عـــلى غيرهم تلك النظرة المشرئبة ، نظرة النسر الذي يتطلع دائما وابداً الى الافق الرحب البعيد . والمجددون كانوا - يندفعون وراء نداء الحياة ، يحفزهم واقع حي نحو مثل أعلى زاهر مشرق ، ان حياتهم تمضي أمامهم لا تقف حيث هي ، ولا ترتد بنفسها الى الوراء ، انها تخوض الخضم ، دون ان تحفل بتجربة ، ذلك لانها تسطر - تاريخهـــا بيدها ، وتجمل من كل تجربة ، عظة . في هذا العالم الذي كانت تتجاذبه قوتان ، قوتان متضادتان في الاتجاه ، كان فجر الجيل الجديد في العصر العباسي ينبثق ، دولاب حضارة ينطلق بقوة الايمان ، ليحقق التطور اللانهائي للانسانية ، وهنا وهناك من يضع العراقيل في وجه هذا الدولاب ، ليحول دون مضيه وانطلاقه ، وليعيش في كهوف الماضي ، في ظلال ما نسجتـــه العناكب ، وصم الاول ، الثاني بالشعوبية ، ووصم الثاني ، الاول ، بالجمود الجديد ، هذا استعان بالفكر ، وذاك بالوحي ، وكانت مشادة ، كان لها اثرها البعيد في مجرى تاريخ العصر العباسي .

ولكن التطور التاريخي للحضارة العباسية ، كان من القوة بمكان ، بحيث ان القديم

الذي كان يعتد بالتقاليد والعادات ، وما هو اشد ساعدا وابعد اثرا من التقاليد والعادات ، لم يستطع ان يحد من نشاطه الحي ، فقد حاول احد الخلفاء - المعتمد بالله - ان يعود بالمجتمع القهقرى ، ان يعود به الى ما كان عليه في الزمن السالف ، فحرم الشراب ونهى عن القيان ، فما الذي افضت اليه هذه العودة ؟ ؟ لقد كانت النتيجة كما قال المسعودي ، ان ثقلت وطأته على العامة والخاصة فاستطالوا خلافته ، وسئموا ايامه ، وعملوا الحيلة عليه فقتلوه ، ولم يبق المعتمد بالله على دست الحكم اكثر من سنة .

هكذا تطورت عقلية الناس في العصر العباسي حضارة جديدة ، تتطلب حياة جديدة ، ومفاهيم لا تقر المفاهيم القديمة ، وقيم حاضر لا تتجاوب مع القيم الغابرة ، فالموسيقار الذي يعتد بالفن القديم ، والموسيقار الذي يعتد بالمواهب الطبيعية دون ما اخذ بصنعة ، لم يعد يجد مكانه تحت شمس هذا العصر ، بات المغني في هذا الزمن يحتاج الى اشياء كثيرة ، اشياء تتمشى مع طبيعة العصر الذي يعيش بين ظهرانيه .

قال مالك بن ابي السمع : سألت ابن ابي اسماعيل عن الحسن المصيب من المغنين فقال : هو الذي يشبع الالحان ، ويملأ الانفاس ، ويعلل الاوزان ، ويفخم الالفاظ ، ويعرف الصواب ، ويقيم الاعراب ، ويستوفي النغم الطوال ، ويحسن مقاطع النغم القصار ، ويصيب اجناس الايقاع ، ويختلس مواضع النبرات ، ويستوفي مايشاكلها من النقرات .

هذا هو المحسن المصيب من المغنين والمطربين في عرف رجال العصر العباسي ، فليس الفنان هو ذاك الكائن الذي يصور له الوهم ان مواهبه الصوتية وحدها ، كافية لان تجعل منه فنانا مرموقا له قيمته وله وزنه ، وانما الفنان المحسن المصيب ، هو الذي توفرت فيه شرائط معينة ، لا بد منها ولا غنى عنها ، فقد كان المغنون والمطربون في العصر العباسي ، من ذوي الثقافة الموفورة ، كان اسحق الموصلي من اعلم اهل زمانه ، ضرب بنصيب وافر في مختلف المعارف ، اما الغناء الذي عرف به واشتهر ، فقد كان اضأل زاد في جعبة علومه . كان المغنون والمطربون في هذا العصر يؤلفون الكتب القيمة في فن الموسيقى الف احمد بن يحيي المكي كتاب (المجرد في الاغاني) ، والف يحيى بن رزوق المكي كتابا في (الاغاني ونسبها

واجناسها (، والف عمرو بن بانة كتابا في (الاغاني)، وصف بانه اصل من الاصول، وكان بين هؤلاء المغنين والمغنيات شعراء ، كانت (علية بنت المهدي) تقول الشعر وتصوغ فيه الالحان ، وكان محمد بن الاشعث يقول الشعر ويغني فيه ايضا ، وكذلك عبد الله بن العباس الربيعي وغيرهم .

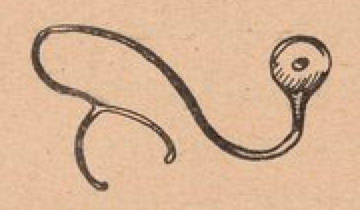
اما القيان فقد كانت تعد اعدادا خاصا ، يقوم المقين بهذا الاعداد ويشرف عليه كبار المغنين والمطربين ، فقد كانت القينة تعلم الغناء والرقص ورواية الشعر، يقول الجاحظ في كتابه القيان (تروي الحاذقة منهن اربعة الاف صوت فصاعدا ، يكون الصوت فيما بين البيتين الى اربعة ابيات ، عدد ما يدخل في ذلك من الشعر، اذا ضرب بعضه ببعض عشرة الاف بيت، وكانت القيان تتزاور فتقتبس الواحدة من الاخرى ما يعوزها وينقصها .

ولم تعد الموسيقى في هذا العصر مجرد عبث ولهو ، بل اصبحت معرفة لها اثرها النفسي البعيد ، قال صاحب المستطرف (الا ترى الام كيف تناغي ولدها فيقبل بسمعه على مناغاتها ويتلهى عن البكاء ، والابل تزداد في نشاطها وقوتها بالحداء ، فترفع آذانها وتلتفت يمنة ويسرة وتتبختر في مشيتها ؟؟ وزعموا ان السماكين بنواحي العراق يبنون في جوف الماء حظائر ، ثم يضربون عندها باصوات مشجية فتجتمع السمك في الحظائر فيصيدونه ، والراعي اذا رفع صوته ونفخ في براعته تلقته الغنم بآذانها ، وجدت في رعيها ، والدابة تعاف الماء فاذا سمعت الصفير بالغت في الشرب. واستشهد المؤرخون في هذا العصر باقوال فلاسفة اليونان فقالوا ان افلاطون كان يحض على سماع الغناء وانه قال (من حزن فليسمع الاصوات الحسنة ، فان النفس اذا حزنت خمدت نارها، فاذا سمعت ما يطربها اشتعل منها ماخمد) كما استشهدوا بتاريخ الفرس فقالوا (ما زالت ملوك فارس تلهي المحزون بالسماع وتعلل به المريض وتشغله عن التفكير) واصبحت الموسيقى موضوع بحث ودرس ، موضوع بحث له قواعده المقررة واصوله المرصودة ، فقد سأل الخليفة المعتمد على الله ، في مجلس من مجالسه عبد الله بن خرداذبه ، عن اول من اتخذ العود وسببه ،كما سأله عن اول من اتخذ الطبول والمعازف وآلات الطرب التي للروم والالات الطرب التي للهند ، والحداء عند العرب وسببه ، واول من غنى من العرب وفضل الغناء واثره ، وصفة

المغنى وانواع الطرب ، وانواع الغناء وفنونه ، وقد اجاب عبد الله بن خرداذبه على جميع هذه الاسئلة، وخلع عليه الخليفة وعلى من حضره من ندمائه. وبدأ المفكرون العرب يدركون تلك الصلة الوثيقة القائمة بين الشعر والموسيقى، هذه الصلة التي ترتد الى ابعد اغوار التاريخ، وقدذهب صاحب العقد الفريدالى القول (ان العرب جعلت الشعر موزونا لمد الصوت فيه والدندنة) .

والفت في هذا العصر كتب متعددة الالوان ، الفت كتب المقارنة بين المطربين ، نظير كتاب (الفرق بين ابراهيم المهدي واسحاق الموصلي في الغناء) لابي الحسن على بن هرون ، وكتب عن طبقات المطربين مثل كتاب (طبقات المغنين لابي ايوب المديني) وكتب عن فلسفة الموسيقى مثل كتاب (شرح السماع) وكتاب (الموسيقى) وكتاب (الايقاعات) للفارابي ، وكتاب (مقالة في الموسيقي) لثابت قره وكتاب (الموسيقى الكبير) و(الموسيقى الصغير) لمحمد بن مروان وما يقال عن هؤلاء يقال عن الكندي وابن سينا والشيرازي .

لقد اصبح المواطن العباسي ، ينظر الى الموسيقى نظرته الى شيء له قيمته الفكرية ، فكما ان الغناء في نظر الفرس كان ادبا ، وفي نظر الروم فلسفة . كما يقول الجاحظ ، فقد عد العرب الموسيقى علما ، وصفها بذلك ابن خلدون في مقدمته حينما تحدث عن الموسيقى ، اما اخوان الصفا فقد غلبت عليهم النزعة الغيبية ، حينما تحدثوا عن الموسيقى ، فقد كانوا يعتقدون بان (فيثاغورس استخرج بصفاء جوهر نفسه وذكاء قلبه اصول الموسيقى ونغمات الافلاك والكواكب) ومهما يكن الامر فقد نحت الموسيقى في العصر العباسي، منحى جديداً في الشكل والمحتوي.



مجالس الغناء

كانت مجالس الغناء في العصر العباسي ، غاية في العظمة والروعة والجمال، كانت هذه المجالس تعد اعداداً خاصا ، سواء أ كان ذلك في قصور الخلفاء ام دور الامراء ام منازل الشرفاء ، ففي قصور الخلفاء كانت مجالس الغـــناء ، تتضوع بأرج الطيوب ، وتعبق بالبخور والند ، والرياحين منثورة هنا ، وهناك ، والخليفة فوق اريكة وثيرة ، وفوق رأسه جارية تذب عنه وتروحه ، ومن وراء ستارة يجلس المطربون والمطربات ، والمغنون والمغنيات ، وقد ارتدوا الالبسة المصبغة وأخذوا مراتبهم حسب مؤهلاتهم ، فمن ضارب على عود وطنبور ودف وزامر ، وأمام هذه الستارة موظف خاص ، يطلق عليه اسم صاحب الستارة ، يقوم بمهمة تبليغ الفرقة الموسيقية ، ما يقترحه الخليفة من أغان وأناشيد ، فاذا فرغ الخليفة من الطعام ، رفعت الموائد ، وجيء بشراب افرغ في كؤوس لطيفة رشيقة ، ودارت به جوار في ثياب رقاق،تشف عن مفاتن خلابة ومحاسن رائعة، وعلى تموجات الانغام ، كانت الاقداح تتراقص على الشفاه ، ذات اليمين وذات الشمال، تراقص الانغام المنسابة في تلك الاجواء المسحورة ، وكان الخليفة ، اذا ما هزته نشوة الطرب واستحسن صوتا من تلك الاصوات المصعدة ، امر صاحب الستارة، باعادة الصوت ، فعاد الصوت ليردد من جديد ، ليردد في ذاك الافق السادر في نشوة الخمر وأرج الزهر . ولكن الستارة التي قامت بين الخليفة والمغنين والمغنيات لم تعمر طويلا ، فقد امتدت اليها يد الزمن ، لتحسرها شيئا فشيئا ، فتوسد الخفر العذري ذراع الماضي، لينام في غياهبه، وهصر عبق الانغام والمدام ، تلك الستارة، هصرها الى الابد ، بعد ان ظلت قائمة زمنا طويلاً ، كرمز من رموز الوقار . كان السفاح اذا ما طرب قال للمغني من وراء الستارة (احسنت والله . أعد هذا

الصوت) ، ويبقى المغني وراء الستارة لايزايله ولا يبرحه ، وكان الخليفة المهدي، يحظر على المغنين الشراب ، فقد ضرب وسجن ابراهيم الموصلي لانه شرب، وكانت مجالس الغناء ، مجالس مهذبة مؤدبة . روى الجاحظ في كتابه اخلاق الملوك (وكان اذا ارتفع صوت الخليفة وراء الستار قال صاحب الستارة حسبك يا جارية كفي . انتهي . اقصري . يوهم الندماء ان القائل لذلك ، بعض الجواري) .

ولكن هذا الادب المهذب الذي رافق مجالس الخلفاء ، ما لبث ان تبدد وتلاشى ، فقد صار الخليفة ، لا يتورع عن الجلوس الى المغني والتحدث اليه ، بعد رفع الستارة بينه وبينه ، كما فعل الرشيد مع المغنى مسكين ، كما صار الخليفة يقبل رأس المغنى ، اذا طرب واغرق في الطرب ، كما فعل ذلك الخليفة الأمين مع اسحق الموصلي ، وصار المغنى يدخل على الخليفة وهو نشوان ، كما فعل ذلك علوبة مع المأمون . فقد دخل عليه وهو يرقص من اقصى الايوان ويصفق ويغني :

عذيري من الانسان لا ان جفوته صفاني ولا ان صرت طوع يديه
واني لمشتاق الى ظل صاحب يروق ويصفو ان كدرت عليه

وصار الخليفة يقضي ليلة كاملة مع المغني ، فقد روى صاحب تاريخ بغداد : ان مخارق شرب مع المعتصم ليلة الى الصبح ، كما صار الخليفة ومن يلوذ بالخليفة ، لا يأبه بحرمة الخلافة في مجالس الغناء ، روى ابن حمدون (غنى اسحق بن ابراهيم الموصلي عند المتوكل في آخر ايامه ، فما بقي غلام من الغلمان الوقوف ، الاوجدته يرقص طربا وهو لا يعلم بما يفعل) . وانتهى المطاف بالخليفة الواثق بالله ، الى ان بات يقضي الليالي الطوال الى جانب المغنين والمغنيات ، وربما رقد في موضعه لايزايله . وكان الغناء في هذه المجالس الحافلة باوفر المباهج وأروع المفاتن ، على صور متباينة واشكال مختلفة ، فاما ان يكون فرديا مطلقا ، ترافقه آلة أو آلات موسيقية ، أو فرديا متناوبا ، يبدأ المغني الاول بانشاد لحن معين من بحر شعري معين وقافية معينه ، فيأتي المغني الثاني ، فينشد قطعة، من نفس اللحن ونفس البحر الشعري ، ونفس القافية ، ويفعل الثالث كما فعل الثاني والاول، كما جرى ذلك للمغني المشدود وزفين ودبيس .

فقد غنى الاول قصيدة جاء في مطلعها :

شققت جيبي عليك شقا　　　　وما لجيبي اردت شقا

فغني الثاني :

قد ذبت شوقا ومت عشقا　　　　يا زفرات المحب رفقـــا

ثم غنى الثالث :

ظمئت شوقا وبحر عشقي　　　　يفيض عذبا ولست اسقى

واما ان يكون الغناء مشتركا ، بحيث تغني فرقة كاملة بين يدي الخليفة ،فقد غنت امام المأمون ، فرقة مؤلفة من عشرين قينة وثمانين آلة .

ولم تكن مجالس الغناء مقتصرة على الاغاني الصوتية فحسب ، بل كانت لاتخلو من عزف ايضا ، وكانت هناك مجالس غناء مقتصرة على العزف الآلي ، يضرب بها المطربون على العود والطنبور والدف والزمر، وما الى ذلك من آلات موسيقية.

الى جانب القصور ، كانت البساتين ، هـذه البساتين المترامية الاطراف ، البساتين التي جعلت من بغداد جنة الارض الموعـــودة ، ففي ظلال اشجارها الوارفة ، كانت تقام الحفلات الغنائية ، لاسيما في ايام الشعانين ، فقـــد روت كتب التاريخ ان احمد بن صدقة ، غنى بين يدي المأمون ، وكانت هناك عشرون جارية رومية مزينة بالديباج وفي اعناقهن صلبانا من الذهب ، وفي ايديهن الخوص والزيتون ، وقد رقصت هذه الوصائف بانواع الرقص من (الدستبندا) و(الايلي) وكان على المغني قبل ان يشخص الى مجلس الخليفـــة ، سواء أكان ذلك في القصر أم في البستان ، ان يمضي الى غرفة تصنع فيها الملاهي ، حيث توجد آلات الطرب (فيصلح المطرب الآلة حتى لا يحتاج الى اصلاحها او تغييرها عند الطرب) وكان على المغني او المغنية ، ان يختار الاغاني التي تتجاوب مع الوسط الذي يغني فيه ، كان على المغني أو المغنية ان يختار القطع الغنائية الارستقراطية ، لا القطع الغنائية العامية الشعبية ، فيما اذا اراد الغناء في مجلس من مجالس الخلفاء ، فقد كان الخليفة ينشد من المغني او المغنية ، السمو بالفن الى الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيـــه الخليفة ، فقد انكر هرون الرشيد ، على ابن صدقة غناءه ، حينما انشد بـــين يديه : غناء الملاحين والبنائين والسقائين .

وقد كان من جراء طبع الغناء العربي بالطابع الارستقراطي، ان فقـــد تاريخ الموسيقى العربية ، معالم الموسيقى الشعبية ، فكتب التاريخ والادب والسير ، لا تحدثنا عن مغنين ومغنيات ، وقفوا فنهم الغنائي على الغناء الشعبي ، كما أن كتب التاريخ والادب والسير ، لاتسرد لنا شيئا من كلمات هـؤلاء المغنين والمغنيات ، فنحن نعرف ابراهيم الموصلي ، وابراهيم بن المهدي ، وابن جامع ودنانير ... ونطالع حياة واخبار هذا الرهط من الفنانين في مختلف ما تحدر الينا من تراث ادبي ، ولكننا لا نعرف شيئا ، لا عن حياة ولا عن اقوال اولئك الذين نذروا فنهم للشعب ، هؤلاء الذين وهبوا حياتهم للفن ، فكانوا له ، لايرقون الى قصور الخلفاء ، ولا يطرقون دور الامراء ، عاش هؤلاء وماتوا ، دون ان نحيط بما يضطرب في قلوبهم ويجيش في صدورهم ، فنتعرف بذلك الى دنيا الشعب في ذاك الزمن ، الى افراحه وأتراحه .

الى جانب مجالس الخلفاء ، كانت هناك مجالس خاصة بالامراء والاشراف ، وأصحاب القيان ، والموسرين من ابناء الشعب ، مجالس لم تكن لها روعة مجالس الخلفاء ولا عظمتها ولا جلالها ، ولكنها كانت اوفر متعة ، لانها كانت اوفر بساطة ، ومن هذه البساطة انبثق فجر جمالها وفاض ، كان ارباب هذه المجالس ، لايقيدون انفسهم بما يتقيد به الخلفاء ، من وقار مصطنع ، وتقاليد وعنعنات وما الى ذلك من الشؤون التي يستدعيها سلطان الخلافة ، في هذه المجالس يتخلى الوقار عن كبريائه في صمت ، ويمضي ليقبع في زاوية قصية مهملة ، فيأخذ مكانه انطلاق مرح ، فيه زهوة وفيه فتوة ، فلا ستار ولا صاحب ستارة ، تبرز القينة وقـد تلفعت بغلالة رقيقة ، وترقص الجواري ، وتدور الاقداح ، فمن جوار في ثياب غوان ، ومن جوار في ثياب غلمان ، وصف ابو عيسى البغدادي مجلسا من مجالس ابي عيسى المتوكل فقال : (وجيء بالشراب ، وقامت جارية تسقينا شرابا مارأيت احسن منه في كأس لا أقدر على وصفها) وما يقال عن مجالس ابي عيسى ، يقال عن مجالس غيره من امراء ذاك العصر ، فقـــد كان الامراء يعيشون حياتهم ، ويتذوقونها قطرة قطرة ، لا يدعون سانحة تمر ، دون ان يتمتعوا بهـا وينعموا باسبابها . كان ابراهيم بن المهدي ، واخته علية بنت المهدي ، وأخوهما يعقوب

بن المهدي ، وكان هذا من احذق الناس في الزمر - يجتمعون ويغنون ، واحد يعزف وآخر يغني وثالث يزمر .

اما مجالس سروات الناس ، هؤلاء الذين يمثلون الوسط الاجتماعي الراقي ، فقد وصفها ابراهيم بن المهدي ، في مغامرة من مغامراته ، حيث قال : (وجيء بالماء فغسلنا أيدينا ، ثم نقلنا الى مجلس المنادمة ، فاذا شكل مليح ما رأيت احسن منه ولا أظرف ، ورأيت صاحب المكان يتلطف بي ، ويقبل علي ، لظنه اني ضيف لأضيافه ، وهم على الحالة هذه ، الى ان شربنا ، فخرجت علينا جارية ، كأنها غصن بان ، في غاية الظرف وحسن الهيئة ، فسلمت من غير خجل ولا احتشام ، واتي بعود فجسته أحسن جس ، واذا هي حاذقة في الصناعة ، وغنت تقول :

توهمها فكري فأصبح خدها	وفيه مكان الوهم من نظري أثر
وصافحها كفي فآلم كفها	فمن ضم كفي في اناملها عقر

ووصف المغني مخارق ، مجلسا من مجالس هذا الوسط الاجتماعي فقال : (وخرجت جارية وراءها وصيفة تحمل عودا ، فوضعته في حجرها ، فغنت وشربوا وطربوا) وقال صاحب اعلام الناس (ومدوا السماط وأكلوا ، ورفعوا الخوان ولأيديهم غسلوا ، واحضرت آلة المدام ووضعت الطاسات والقناني) واضاف (فنصب الخادم الكرمي وجلست عليه الجارية وهي كالشمس الضاحية ، وبيدها عود من صنعة الهنود ، وشدته وحنت اليه ، بعد ان ضربت اربعة وعشرين طريقة عليه) ، اما دور اصحاب القيان ، فقد كانت بمثابة ندوة ، يغشاها الشباب ، الذي لا هم له الا اقتناص اللذات ، والتمتع بالمسرات ، وقضاء ليال ثملة فياضة بالرغبة ، متألقة بالاحلام ، في هذه المجالس كان المرح يرنق على كل شيء ، فيتجلى الظرف في اجمل معانيه ، وتنطلق النوادر ، حرة كالنسيم ، يروى العتبي ان شخصا حضر مجلسا من مجالس الغناء ، فلما تملكه الطرب ، دلف الى القينة وقال لها : جعل الله كل حسنة لي ، لك ، وكل سيئة عليك علي ، فشكرته القينة ، واثنت عليه ، فما كان من زميله الا ان نهض وقال للقينة : ان هذا الشيخ ماله حسنة واحدة يهبها لك ، ولا عليك سيئة واحدة يحملها عنك ، فلأي شيء تحمدينه ؟

وروى ان ابا نواس حضر مجلسا من مجالس الطرب ، فقالت له القيان ! ليتنا

بناتك ؟ فقال ابو النواس ونحن على دين الجوسية .

بمثل هـــذه الطرف كانت مجالس الغناء تعبق وتفوح ، فقد كان الظرف من مستلزمات هذه المجالس كان بخورها وندها ، كما كان عطرها وزهرها .

وكان الرجـــل ، يذهب بقينته ، اذا كانت لديه قينة ، الى دار صديقه فيقضي سهرته ، كان يفعل ذلك دون ان تساوره غيرة او ريبة ، فقد كانت الحياة الاجتماعية في ذاك الزمن ، اوسع افقا على ما يظهر ، منها لدى احفاد اولئك الرجال . وفي ليالي الصيف ، ليالي بغداد المقمرة ، كانت الحراقات تنساب آمنة مطمئنة فوق نهر دجله ، تنساب انسياب احلام الفتوة ، لطيفة رشيقة متموجة ، تنساب وهي تحمل معها عالما فنيا حافلا ، عالما يزخر بالالحان والانغام . فقد كان الاجداد يقضون على هذه الحراقات ، اجمل مجالس الغناء ، من ذا الذي لم تأخذه عن نفسه نشوة مجنحة وهو يستمع الى شهرزاد وهي تتحدث في الف ليلة وليلة ؟

من ذا الذي لم يستهوه السندباد البحري ومعروف السكافي ، وذلك الخاتم ، خاتم المارد ؟ بلى من ذا الذي لم تستهوه كل هذه الاشياء الجذابة الاخاذة ؟

لقد تفجرت هذه الاضواء من ينبوع حقيقة استمدت عناصر وجودها من واقع حي ، وهـــذا الواقع الذي غلبت عليه تصورات الوهم ، هو مجالس القدامى في غنائهم ، وطربهم ولهوهم .

وصف عبد الله بن المعتز مجلسا من مجالس محمـد الامين فقال : بنى المخلوع « محمد الامين » مجلس لم تر العرب والعجم مثله ، قـــد صور فيه كل التصاوير ، وذهب سقفه وحيطانه وابوابه ، وعلقت عـلى ابوابه ستور معصفرة مذهبة وفرش بمثل ذلك من الفرش ، فلمـا فرغ من جميع اسبابه ، وعرف ذلك ، اختار لدخوله يوما ، وتقدم بان يؤمر الندمـاء والشعراء بالحضور غدوة ذلك اليوم ، ليصطحبوا معه فيه ، ففعلوا ، فلم يتخلف احد ، فـدخلوا فرأوا شيئا لم يروا مثله قط ، ولم يسمعوا به ، من ايوان مشرف فائح فاسح ، يسافر فيه البصر ، وجعـــل كالبيضة بياضا ، ثم ذهب بالابريز ، المخالف بينه بالـــلازورد ، له ابواب عظام ومصاريع غلاظ تتلألأ فيها مسامير الذهب ، قد قمعت رؤوسها بالجوهر النفيس ، وقد فرش بفرش كأنه صبغ الدم ، منقش بتصاوير الذهب ، وتمـــاثيل العقيان ، ونضد فيه

العنبر الاشهب ، والكافور المصعد ، وعجين المسك ، وصنوف الفاكهة والشمامات والتزايين . فدعوا له واثنوا عليه واخذوا مجالسهم على مراتبهم عنده ومنزلتهم منه ، ثم اقبل عليهم فقال : اني احببت ان افرغ متعة هذا المجلس معكم واصطبح فيه بكم ، وقد ترون حسنة ، فلا تنغصوا ذلك بالتكلف ولا تكدروا مروري بالتحفظ ، ولكن انبسطوا وتحدثوا وتبذلوا فما العيش الا في ذلك ... ثم لما طعموا اتى بالشراب ، كأنه الزعفران أصفى من وصال المعشوق واطيب ريحا من نسيم المحبوب ، وقام سقاة كالبدور بكؤوس كالنجوم ، فطافوا عليهم ، وعملت الجواري من خلف الستائر بمزاهرها ، فشربوا معه ، من صدر نهارهم الى آخره ، في مذاكرة كقطع الرياض ، ونشيد كالدر المفصل بالعقيان ، وسماع يحيي النفوس ويزيد في الاعمار ، فلما كان آخر النهار ، دعا بعشرة آلاف دينار في صواني ، فأمر فنثرت عليهم ، فانتهبوها والشراب بعد يدور عليهم بالكبير والصغير من الصرف والممزوج ، وليس يمنع احد منهم مما يريد ولا يكره على ما يأباه » .



حياة الفنان

كانت حياة الفنان في العصر العباسي ، حافلة بالحوادث زاخرة بالمفاجآت ، فقد كانت هذه الحياة عرضة للرفع والخفض ، والبدر والفقر ، والسعادة والشقـــاء ، تمضي آمنة مطمئنة في حين ، وعاصفة صاخبة في حين آخر ، ومهما يكن الامر ، فقد عاش الفنان في العصر العباسي حياته ، وكان معظم هـــؤلاء الفنانين من ابناء الشعب ، من ابناء الطبقة التي تؤلف مادة التاريخ الاولية ، وقد استطاع فريق كبير منهم ، بفضل فنه الملهم ، التحليق الى اسمى الآفاق ، اذ توصل المبدعون، الى قصور الخلفاء ودور الامراء ومنازل الشرفاء ، وتمتعوا بمكانة لم يتمتع بها غيرهم من رجال ذلك العصر ، فقد روى ان الخليفة المعتصم ، اجلس المغني اسحق الموصلي امام سريره في مجلس من مجالسه العامة، كما روى ان الخليفة المتوكل كتب في احضار هذا المغني ، لما علم بانه قد كف وانه في منزله ببغداد ، فلما دخل عليه الفنان الكبير رفعه الخليفة واجلسه قدام السرير ، وكان الخليفة يقطع المطرب والمغني القرى ، ويعطي المنازل ، كما فعل الرشيد مع مخارق ، ويغدق الالوف المؤلفة من الدنانير على الفنانين المبدعين ، فقد روى ان موسى الهادي ، اعطى ابراهيم ماية وخمسين الف دينار في ليلة واحدة ، فقال ابن المطرب : « لو عاش الهادي لطلينا جدران دورنا بالذهب والفضة، وبلغت هبات الخلفاء للمغنين والمطربين ، حدا لايدانيه حد، ودرجة لا تضارعها درجة ، حتى ان الفنانين انفسهم استكثروا على انفسهم هـذه الجوائز الضخمة ، ففي مجلس من مجالس الامين قال المطرب اسحق الموصـــلي للخليفة « لقد اجزتني الى هذه الغاية بعشرين الف الف درهم » فقال الامين : (وهل ذاك الاخراج بعض الكور ؟

بمثل هذا اجاب الخليفة المغني الذي اوقرت جيوبه الجوائز وملأت بيته الهبات، وكان من جراء هذا كله ان راح الشعب يتساءل من اين لهؤلاء المغنين هذه الاموال؟ قال ابن قتيبة في كتابه عيون الاخبار : (قدم ابن جامع مكة بخير كثير ، فقال

ابن عيينه علام تعطيه الملوك هذه الاموال ويحبونه هذا الحباء) ؟ وما يقال عن ابن جامع يقال عن غيره من المغنين والمطربين ، فقد وجد الخلفاء والامراء والاشراف في الفنانين ، مدى لترفهم ، مدى لذاك الفراغ الرحب ، من اوقات العبث ، وكان هؤلاء السادة ينعمون بحياة طيبة حلوة ناعمة ، ففتحوا القصور والدور للفنانين ، ليضفوا على حياتهم ، مفاتن جديدة ، يتلاشى الواقع معها في تهاويل الخيال ، كانوا يلهون بالزمن ، لا يفكرون الا بالساعة التي هم فيها ، يعيشون في لحظة واحدة ، كما لو انهم يعيشون الابد ، ولكن هذه النعمة السابغة التي اسبلها رجال الحكم على المغنين والمطربين ، لم تكن ابدية الاستمرار دائمة الاطراد ، فقد كانت حياة كل فنان ، معلقة على اهواء عابرة ونزوات عارضة ، كانت حياته عرضة لاذى مفاجيء ، ينبعث في صدر الخليفة او الامير أو الشريف ، لا لشيء ، بل لان احد الوزراء أو الامراء او الشرفاء ، نقم عليه ، فاوغر صدر الخليفة ضده ، فضرب ، واهين ، وجر من رجله ، فقد نقم الوزير الفضل بن الربيع على المغني «علوية» فحض الامين عليه ، فما كان من الخليفة الا ان امر بجلده خمسين سوطا ، او لان احد الحساد ، وسوس للخليفة ما وسوس ، فاذ بالخليفة يعرض عن الفنان ، واذ بالناس يجارون الخليفة في هذا الاعراض ، فلا صديق ولا سمير . سأل المأمون ذات مرة عن المغني اسحق الموصلي ، فقال عنه احد حساده «انه رجل يتيه على الخلافة» فصرف الخليفة وجهه عن المغني ، فاذ بالدنيا كلها تصرف عنه وجهها ، او لان الفنان لم يأخذ باسباب ، المجالسة الملوكية ، هذه المجالسة التي تتطلب من كل فنان الاحتفاظ بوقاره ، في مجلس تدور فيه ارطال الشراب ، فقد عربد المغني محمد الرف ، في حضرة الرشيد فما كان من الخليفة الا ان طرده ومنعه من الدخول عليه وتناساه . وكانت للفنان نزواته ، نزواته الخاصة التي يستمد منها وحيه والهامه ، وكان بعض الخلفاء ينكر على هؤلاء الفنانين هذه النزوات ، واذا ما استجاب الفنان الى ما يجيش في صدره ، كان نصيبه العذاب والحرمان والسجن ، فقد حظر المهدي على المغني ابراهيم الموصلي الشراب ، وما كان في مقدور الفنان الانصياع لهذا الامر ، اذ كانت الخمرة تنساب في عروقه انسياب دمائه ، كان كحوليا ، وكان الشراب يناديه في حله وترحاله ، فلما اكرهه الخليفة على الاخذ بما لا طاقة له به ، تخطى القيد وجاوز

الامر ، وكان نصيبه السجن .

هكذا كان حظ بعض الفنانين المقربين من الخلفاء والوزراء والاشراف ، اولئك الذين بسم لهم الحظ فظفروا بالمال الوفير والخير الكثير . اما اولئك الذين لا حظ لهم من دنياهم ، فقد عاشوا حياتهم يشخصون بابصارهم الى الاضواء المتألقة ، دون ان يحظوا بنصيب من مباهج هذه الاضواء ، انهم ابناء تلك (الحظيرة القذرة التي زجت فيها امنا حواء اجدادهم) كما يقول (بلاسكو ايبانيز) ، لقد كانت اللعنة الابدية تلاحقهم ، اني توجهوا وحيثما اقاموا ، وكان المجودون منهم اذا ظفروا بغنيمة ، خرج عليهم الاعراب وقتلوهم ، كما حدث للمغني محمد صدقة . اما الفنان الذي عاش في نجوة من نقمة امير وضغينة وزير ، فقد عاش في جحيم حسد مرير ، حسد ايقظته انانية عمياء ، انانية كانت مصدر ابداع الفن كما كانت مصدر نكبة الفنان ، فقد دفع هذا الحسد الفنان ، لينال من اخيه ، املا منه بالتفرد بحظوة والاستئثار بهبة ، لم يكن هذا التنافس فنيا بقدر ما كان شخصيا ، كان لكل فنان كبير عصبة من الفنانين تنطوي تحت رايته وتعمل باشارته ، كان هذا الفنان الكبير يمهد السبل لجماعته حتى يظفر افرادها باوفر قسط من جوائز الخلفاء والامراء يدافع عنهم ويأيدهم ، كما يدافعون عنه ويؤيدونه ، يشيد باسمهم وبذكرهم ، كما يشيدون بذكره واسمه ، كان اسحق الموصلي يناصر علوية ضد مخارق ، كما كان عمرو بن بانة يتعصب لابراهيم بن المهدي ، ويتحامل على اسحق الموصلي ، اما النزاع بين كبار المغنين ، نظير النزاع الذي حدث بين ابراهيم الموصلي وابن جامع ، فقد كان من العنف بمكان عظيم . ولعل اخطر مظاهره وارهب اشكاله ، ذاك النزاع الذي كان يقوم بين فنان ينتسب للبيت المالك ، وآخر ينتسب لطبقة الشعب ، كان النزاع بين الطرفين ، رهيبا مبيدا ، بالنظر لعدم تكافوء السلاح ، ولعل اظهر صورة من صوره ، ذاك النزاع الذي قام بين ابراهيم بن المهدي واسحق الموصلي ، كان الاول ابن خليفة وشقيق خليفة ، مارس الغناء لا للكسب كما يقول ، بل للذة معنوية ومتعة روحية ، وكان الثاني من اولئك الذين مارسوا الغناء لا ليحققوا رغبة فنية فحسب بل ليعيشوا ايضا ، فقد كان الغناء مادة رزقهم وسبيل معاشهم ، كانوا يحترفون الغناء ليؤمنوا قوتهم اليومي ، فطرقوا ابواب الخلفاء والامراء والشرفاء ،

ليعيشوا على موائد افراح الناس ، لا على موائد افراحهم انفسهم ، ودعوا الى مجالس ما كان لهم باصحابها صلة من الصلات ، اللهم الا صلة الجائزة التي يرقبونها والهبة التي ينتظرونها ؛ لقد كانوا بؤساء حقا ، غنوا لغيرهم في الوقت الذي لا يجيش في صدورهم غناء ، وعزفوا لجلاسهم في الوقت الذي لا تساورهم رغبة في عزف ، وحتى يوقظوا عاطفتهم الفنية ، كانوا يؤججونها بالشراب ، واذا ما اسرفوا في الطلب ، لامهم الناس ، ولم يخل احدهم من تثريب ، لام الناس حنين الحيري على اخذه المال الكثير ، فكان جوابه : « انما هي انفاسي اقسمها بين الناس ، افتلومنني ان اغلي بها الثمن ؟ » توعد ابراهيم بن المهدي الفنان اسحق الموصلي ، ولولا الرشيد ، ولولا ان الخليفة اسبل حمايته على الفنان ، لمات اسحق وقضى عليه ، دون ان يعلم كيف قتل و كيف مات . فقد غنى اسحق الموصلي بين يدي الرشيد ، فقال له ابراهيم بن المهدى : ما اصبت يا اسحق ولا احسنت ، فساورت اسحق عزة الفن ، فقال لابراهيم « ليس هذا بما تعرفه وتحسنه ، وهنا ثارت كبرياء ابراهيم فصاح بالفنان : اتجترىء وتقول ما قلت ... ؟

وخاف اسحق ، خاف الفنان نقمة ابراهيم ، وانتقام ابراهيم ، فعمد الى المراوغة لينقذ نفسه فقال :

أنت تشتمني ، ولا اقدر على اجابتك ، وانت ابن خليفة واخو خليفة ، ولولا ذلك لقلت لك ما قلت لي ...

وبالرغم من هذه المناورة البارعة ، فقد ظل الجزع ماثلا امام عينيه ، فاضفى على النزاع الشخصي ، شكلا سياسيا ، شكلا يتصل بالخلافة وامور الخلافة . وهكذا انقذ الفنان نفسه ، ومع هذا كله ، فقد انحى الرشيد على الفنان باللائمة وقال له ! لوضربك ابراهيم ، اكنت اقتص له منك ، فاضربه وهو اخي يا جاهل ؟ اتراه لو امر غلمانه فقتلوك أكنت اقتلك به !

هكذا كانت حياة الفنان في العصر العباسي ، حياة غريبة عجيبة ، مليئة بالمتناقضات ، رجل من طبقة الشعب يسمو به فنه الى ارفع المراتب ، الى مجالس الخلفاء والامراء والشرفاء ، ثم يلزم بتقاليد وعادات ، لا عهد له بها من قبل ، فاذا ما تجاوز هذه العادات وتلك التقاليد ، ضرب واهين ، ينافسه في فنه امير من امراء البيت المالك ،

ويتآمر عليه وزير ، ويحض الخلفاء عليه حاسد ، ويطلب اليه ان يكون الكوكب المتألق في ذلك الفلك، ويطلب اليه ان يكون الشمعة المضيئة في تلك الدهاليز المعتمة القاتمة ، من دنيا رجال الدولة . يأخذون منه اكثر مما يعطونه ، ويسلبونه اكثر مما يمنحونه ، دون ان يراعوا طبيعة روحه الفنية ،هذه الطبيعة المرهفة،صناجه الوساوس والاوهام ، فكم من فنان قضي عليه ، لانه ثار وتمرد على اولئك الذين يقترحون عليه اغنية من الاغاني ، كان (وجه القرعة) اذا سئل الغناء اباه ، وكان الناس ينكرون عليه هذا الاباء ، وقد ذهبت كرامة الفن بحياة احد الفنانين ،لانه رفض اعادة الصوت ، ذهب هذا الرفض بحياته لانه كان مخلصا لطبيعته النفسية الفنية ، هذه الطبيعة التي لا يمكن ان تخضع لمقاييس ومفاهيم ، ذلك لان شذوذها ، هو سر نبوغها ، ترى لو فقدت هذه الطبيعة الخاصة ، كيف يتسنى لها ان تمنح الوجود، اروع ما تتحلى به معاني الوجود؟

الى جانب هذا كله ، الى جانب هذه المآسي اللامتناهية ، فقد كان الغناء في عرف رجال العصر العباسي سبة تلحق بمحترفها ، وتنزل بصاحبها ، ان الجو الارستقراطي الذي كان ينعم بمباهج الفن ، كان ينظر الى الفنان نظرة لا تتفق ورسالته الفنية الحقة ، كان الفن في عرف هذا الجو ، متعة لا غاية لها الا المتعة ، اما ان الفن رسالة يعبر بها الانسان عن التطور اللانهائي للحضارة ، فهذا شيء لم يدر بخلد اولئك الذين كانوا يسبحون في اجواء الغناء ، كان الفن في عرفهم ، مهنة لا يزاولها الا ابناء الطبقة الدنيا من مجتمع ذاك العصر ، انها حرفة الموالي ، ولا يسوغ في حال من الاحوال ان يتدنى ابناء الطبقة الارستقراطية ، الى مشاركة ابناء الاغوار السفلى ، فيما يمارسون من صنعة ، يتكسبون بها ويعيشون ، فقد روى ان جد الفنان عبد الله بن العباس ، قال لحفيده حينما علم انه دخل في عداد المغنين والمطربين « لقد فضحت اباك في قبورهم » ، هذا وعبد الله لم يمارس الغناء ، شغفا منه بالغناء ، بل لانه كان يهوى جارية من جواري جدته ، وما كان في مقدوره الاتصال بها فيما اذا لم يتذرع بحيلة ، وكانت هذه الحيلة ، تعلم الغناء ، والغناء سبة وهوان ، لا يخلق بالرجل الذي يتمتع بمكانة ما ، مزاولته ، ولا يجدر بالرجل الذي يمت بآصرة النسب الى بيت رفيع ان يعتد به ويأخذ باسبابه ، ذلك لان الفن الهية ، غايته لا تعدو العبث العابر،

لا التعبير عن حاجة من حاجات المجتمع الانساني .

هكذا عاش الفنان في العصر العباسي ، عاش حياة مليئة بالمتناقضات زاخرة بالمفاجاءات ، عاش المجدود في نعيم سلطان وارف ، يجود عليه الخليفة او الامير او الشريف، بهبات جلت عن الوصف ، وجوائز دقت عن التعبير ،كان الفنان المجدود، يعيش في عالم يموج بالرؤى موار بالاحلام، كان صورة من تلك الصورة الاسطورية المجنحة ، اما الفنان الذي تخطاه الحظ وخلفه وراءه في بيداء الحياة دون ما دليل ، فقد كان نصيبه في دنياه،لا يختلف شيئا عن نصيب الشعب الذى يعيش بين ظهرانيه، كان هذا الشعب يرفل في اهاب حرمان فضفاض، حال لونه، كما حال لون صاحبه، كان هذا الشعب فقيرا معدما ، لايجد لديه السقف الذي يأويه، والمنزل الذي يطويه، فكيف يتسنى للفنان ان يجد لديه الملاذ الامين ؟ كيف يتسنى له ان يجد لدى شعب ، كان البؤس غذاءه ، ما يقوم بأوده ؟

ان البطون الجياع كانت تنشد الخبز ، قبل الغناء ، فكان الفنان ، الذى لا يجد سبيلا الى باب الخليفة او الامير ، لا يجد سبيلا الى قوت يومه، وهكذا ارتبطت مقدرات الفن بمشيئة البيئة الارستقراطية ،فعبر الفنان عن افراح واتراح هذه البيئة، دون ان يعبر عن افراح واتراح البيئة التي يمت اليها ويحيا بين ظهرانيها وكان من جراء هذا كله ، ان طبع الفن الغنائي في ذاك الزمن ، بطابع الفئة الحاكمة ، بالطابع الارستقراطي ، كما كان من جراء هذا كله ، ان بعدت الشقة بين الفنان والشعب ، فلم يعد يجد الاول لدى الثاني مداه ، ولا الثاني لدى الاول صداه .



حياة القيان

كانت تجارة الرقيق ، تجارة شائعة رائجة في العصر العباسي ، يؤتى بالجـارية الرومية او الفارسية او التركية او الهندية ... الى سوق النخاسة ، فتباع كما تباع السلع ، ثم يصار الى اعدادها اعداداً خاصا ، اذا كانت صالحة للغناء ، في دار رجل يطلق عليه اسم المقين ، وقد حدثتنا كتب - التاريخ والسير والادب عن عدد من هؤلاء الرجال ، مثل ابن رامين ويحيى بن نفيس وغيرهما .

كان المقين يدفع الجارية الى امرأة تعرف باسم قيمة القيان ، وكان على هذه القيمة ان تتعهد الجارية بالتربية ، حتى اذا تفتحت براعم هـذه الوردة الغضة ، علمت « الشعر وايقاعه ، وبسيطه ومجراه ، واصبعه وتجزئته ، واقسامه ومخارج نغمه ، ومواضع مقاطعه ، ومقادير ادواره واوزانه » وكان على الجارية التي قدر لها ان تمـارس صنعة الغناء ، الا تلم بهذه الاشياء فحسب ، بل كان عليها ايضاً ، ان تتقن فـنّ التجميل والمعاشرة والمجالسة ، حتى المجون والهتك ، كان على الجارية المغنية ، ان تكون امرأة كاملة الانوثة ، امرأة تعرف كيف ترمى فتصمي ، امرأة جميلة في كل شيء ، في الصوت والجسد . ولم يك جمال الجسد قبل ابراهيم الموصلي متطلبا مـن المغنية ، فلما جاء ابراهيم الموصلي ، حطم هذه القاعدة القديمة ، القاعدة التي كانت تهدف الى تجنب الغواية السافرة ، فاختار الجميلات من الجواري ، وراح يعدهن لقصور الخلفاء ودور الامراء ومنازل الشرفاء ، ولم تتقن القينة في هذا الزمن الغناء وحده ، بل اتقنت الضرب عـلى العود والطنبور ، وما الى ذلك من الالات التي كانت شائعة في ذاك الزمن ، وهكذا نزلت القينة الى الميدان ، وهي مزودة بفتنة الوجه وفتنة الصوت معا ، وكان من جراء هذا الاعداد المتقن ، ان ارتفعت اسعار الجواري المغنيات ، حتى بلغت عشرات الوف الدنانير ، فقـد روي ان الخليفة موسى الهادي اشترى المغنية (غـادرة) بعشرة آلاف دينار ، كما اشترى الخليفة

الواثق بالله المغنية (قـلم الصالحية) بعشرة آلاف دينار ايضا ، وتذهب بعض الروايات الى القول بان هارون الرشيد اشترى جارية مغنية ، بستت وثلاثين الف دينار . وكان الخليفة اذ سمع باسم قينة طلب استدعائها اليه ، حتى اذا مثلت بين يديه ، ولاقت منه محملا وقبولا ، اشتراها أو أوعز الى احد اتباعه بشرائها ، وقد يشتريها الخليفة نفسه ، ويهبها الى احد رجاله ، ليصغي الى غنائها بين القينة والقينة ، كلما تاقت نفسه اليها ، كما حـدث للمغنية (ذات الخال) وقد يبلغ الامر ببعض الخلفاء ، الى اخذ مغنية احد اتباعه ، ثم يهبها الى غير صاحبها الاول ، كما حــدث للمغنية (بذل) . وما يقال عن الخلفاء يقال عن الامراء ، فقد جاء في كتاب اعلام الناس ، ان ضمرة بن المغيرة ، احد امراء البصرة بعث بهدايا الى قينة قدرت بثلاثين الف دينار ، وان يزيد بن عون العبادي منح القينة سلامة الزرقاء لؤلؤة باعتهـــا بثلاثين الف درهم .

ان فداحة اثمان الجواري المغنيات ، تعطينا صورة واضحة ، عمـا كانت عليه الجارية المغنية في الزمن العباسي من فتنة ، فقد وصفت المغنية (عريب) بانها كانت « مغنية محسنة وشاعرة صالحة للشعر ، وكانت مليحة الحفظ والمذهب في الكلام والظرف ، وحسن الصورة والرواية للشعر والادب والملاحة والمهاجنة »

كما وصفت « محبوبة » بانها « تحسن مـا يحسنه من علمـاء الناس » ، وقد فتحت المواهب الفنية التي تحلى بها بعض القيان ، ابواب منازل ما كان يدور في خـلد انسان انها ستفتح لهن ، فقد حسن موقع المغنية محبوبة لدى الخليفة المتوكل، بحيث انها حلت من قلبه محلا جليلا ، لم يكن أحد يعدلها عنده ، كما يقول علي بن الجهم ، وتزوج عدد من قواد الدولة بمغنيات ، كن لا يتورعن عــن التودد الى كل من يهواهن ، كما حدث ذلك للمغنية (دقاق) . لقد لعبت القيان دوراً هاما في تاريخ العرب في العصر العباسي ، كانت القينة الملاذ الذي يأوي اليه الخليفة او الامير او الشريف ، في ساعات لهوه ومرحه ، حيث الدنيا نشوة والعمر صبوة ، في مثل هذه الساعات، لا سلطان الا لسلطان القينة ، ولكن هذه السلطة التي لا مشيئة فوق مشيئتها ، كانت تصدر عن مخلوقـة بائسة شقية ، وهبت الفن اسمى المعاني وارفـع القيم ، ولكنها كانت في نظر المجتمع ، انسان مبتذل ، انها جارية لا تتمتع بالحقوق

التي يتمتع بها الكائن الحي ، تجلت من الاقطار القصية النائية ، لا أب ولا أم ، ولا اخ ولا اخت ، تعيش وحيدة فريدة في تابوت مغلق من المشاعر المكبوتة ، بينما تتراءى للناس ، كما يتراءى الكوكب المتألق ، انها في المجتمع الذي تعيش بين ظهرانيه ، الامل المنشود والرجاء المعبود ، غير انها من اعماق وجدانها الحساس الذي شحذه فن مرهف ، تطل على الدنيا وفي نظرتها شعور صارخ بهوانها ، شعور انسان يدرك بانه متعة عابرة ، وان مباهج هذه المتعة مرهونة بعبقرية فنها وروعة جمالها ، وان هذه الروعة وتلك العبقرية ، لن يكون لليلها صباح متى ولت وزالت ، ان عينيها عالقتان دائما وابدا بالافق ، ترقبان الفجر الذي ينبثق ، فتتراكض امامه المسرات والمفاتن ، لتأوي في قعر الهاوية ، هي في كل لحظة ترقب الغد ، وما يحمل معه الغد ، من هرم ومرض وشقاء ، ولتنسى هذه الحقيقة المرة الجارحة ، لتنسى غدها المتجهم المرير ، تتلاشى في يومها الحاضر ، فتغني الحياة في الحياة ، دون ان تدخر شيئا لما يكنه المجهول ، مثل هذا المخلوق الذي شب في مهد الشعر والنغم وكل ما يجعل الحس مرهفا دقيقا ، مخلوق لا يؤمن بالحياة ، لانه فقد الشعور بالحياة ، فماذا ينتظر منه الانسان ؟ أينتظر غير الهتك والخيانة ؟ أينتظر منه غير العبث باقدس الحرمات ؟

انه يتهتك ، لان الذين يحتوونه بين اذرعهم ، يتطلبون منه الهتك ، انهم ينشدون منه خلع العذار وحسر النقاب عن الاسرار ، وهو اذ يهتك ، انما يحاول تناسي حقيقة مرة ، حقيقة شعوره بانه متعة عابرة ، وانه يخون ، وتغدو الخيانة طابعه الخاص ومألوف ما يطالع به الناس ، بلى انه يخون ، لانه يعطي اكثر مما يأخذ ، ولانه يعلم حق العلم ، بان الذي فتح بابه بيد ، لا يلبث ان يخرج ليغلقه بيد أخرى وان هذه الفنون التي تحف به من جمال وجه وجمال صوت ، هي طلاسم سحره ، وان هذه الطلاسم وشبكة البراح ، وانها في اليوم الذي تولي فيه الى حيث لامعاد سيحطم اولئك العشاق « القمقم » ليتحرروا من وهم الحب ، وهم يرددون ما قاله توماس هاردي (لن نبالي باحب منك ذا الوعيد) ، وليغدو هذا المخلوق المسكين حياة ضائعة .

وماذا عساك تنتظر من مخلوقة عاشت حياتها ، بين قوم لا هم لهم الا اعدادها

أتكون ريحانة العين والاذن والحس ؟ مـــاذا عساك تنتظر من قينة يلقنها الفن واصوله ، اناس لا يقيمون وزنا لابسط المبادىء الاخلاقية والقيم الاجتماعية ؟ يقول الجاحظ في رسالة القيان (وانما هي تنشأ من لدن مولدها الى اوان وفاتها بما يصدُّ عن ذكر الله من لهو الحديث وصنوف اللهو والاخانيث وبين الخلعاء والمجان ومن لا يسمع منه كلمة جد ولا يرجع منه الى ثقة ولادين ولا صيانة ولا مروءة) ويذهب الجاحظ في رسالته الى ابعـــد من هـذا الحد ، حينما يتحدث عن اصحاب دور القيان ، هـؤلاء الذين يتناولون (اجرة المبيت وينامون قبـل العشاء) ، ان مخلوقا ينشأ مثل تلك النشأة ويشب في مثل هذا الوسط ، لا ينتظر منه غير العبث والفجور والهتك ، ان هذا المخلوق الذي يحس بانه سلعة تباع في اسواق النخاسة ، لا يمكن ان يكون امينا ، حفيظا على عهد حريصا على ود ، كما انه لا يمكن ان يكون مثال الطهر والعفاف ، ان هـذا المخلوق الذي يعيش في مثل هذا الواقع الالم ، ويحس بهوان هذا الواقع الاليم ، يفقد الايمان بشخصيته ، وفقدان هذا الايمان ، هو الذي يجعل الحياة في نظره مجردة من كل معنى ، وخالية من كل غاية ، انه يتمرغ بالوحل ، اقذار هنا وهناك ، لاصقة به عـــالقة ، وحينما ينظر الى نفسه في مرآة ذاته ، يحتقر هذه النفس ويجتويها ، فيعمل على ان يمرغ بالوحل ، كل من يتصل به ويتقرب منه ، ان مخلوقا يعلم حق العلم ، بان الدموع التي تراق بين يديه لا تلبث ان تجف ، وان القلوب التي تتحرق عليه سرعان مـــا تكف ، ان مخلوقا يدرك هذه الحقيقة المرة ، هل يمنح اكثر مما يأخذ ؟ وهل يعطي اكثر مما ينال ؟ من هنا كان من (الآفة عشق القيان) كما يقول الجاحظ ، ومن هنا كانت (القينة لا تخلص محبة لاحد ولا تؤتى الا مـن باب الطمع) كما يقول ابراهيم الشيباني .

• • • •

ولكن المخلوقة التي قضت عليها الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، القائمة في ذاك العصر ، بالتهتك والخيانة ، كانت تحب وتعشق مثل سائر الناس ، كان لها قلبها الموار بالعواطف المتموج بالمشاعر ، كانت تحب بكل ما اوتيت من قوة ، ومن الحب احست بوجودها الحي ، وعثرت عـلى شخصيتها الضالة ، فمنحت

الشخص المعبود كل شيء دون ان تسأله اي شيء ، ان مخلوقة لا أم لها ولا أب ، ولا أخ ولا اخت ، ولا ولد ولا وليدة ، تضفي كل مشاعر الابوة والامومة والاخوة ، على ذاك الانسان الذي تحبه ، وفي هذه النشوة اللامتناهية في الغناء المطلق ، يطهر الحب الرجس ، فينبثق الوفاء والاخلاص ، انبثاق ينبوع محبوس تفجر بغتة ، ففاض بالخير والنور والجمال ، هكذا كان حب القيان ، حب انسان وجد في العاطفة ، الملاذ الذي يستريح اليه ويستكين ، وطريق الخلاص من الوحدة الرهيبة ، وحدة الشيطان .

فكم من قينة ضحت بحياتها ، وهي قريرة العين ناعمة البال ، لتلحق بذاك الذي احبته ، فقد روى المسعودي في كتابه مروج الذهب :

لما قتل المتوكل ضمت محبوبة وكثير من الوصائف الى بغا الكبير ، فدخلت عليه يوما للمنادمة ، فامر بهتك الستارة ، وامر بالقيان يرفلن في الحلي والحلل ، واقبلت محبوبة حاسرة من الحلي والحلل عليها بياض ، فجلست مطرقة منكسة ، فقال لها وصيف : غني فاعتلت عليه ، فقال اقسمت عليك : وامر بالعود ، فوضع في حجرها ، فلما لم تجد بدآ من القول تناولت العود من حجرها ، ثم غنت عليه غناء مرتجلا :

اي عيش يلذ لي	لا ارى فيه جعفرا
ملك قد رأيته	في نجيع معفرا
كل من كان ذاخبا	ل وسقم فقد برا
غير محبوبة التي	لو ترى الموت يشترى
لاشترته بما جودَ	به يداها ، لتغيرا

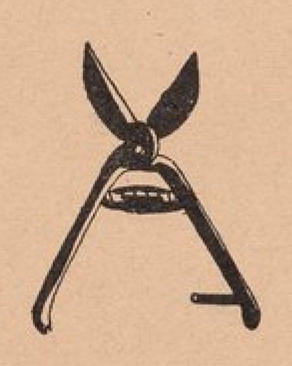
فغضب عليها وصيف ، وأمر بسجنها ، فسجنت وكان آخر العهد بها .

وكم من قينة عرضت حياتها لخطر اكيد في سبيل من تحب ، فقد روى اسحق الموصلي انه كان للمأمون جماعة من المغنين وفيهم مغن يسمى سوسنا ، عليه وسم جمال ، فبينما هو عنده يغني ، اذ تطلعت جارية من جواريه ، فنظرت اليه فعلقته ، فكانت اذا حضر سوسن تسوي عودها وتغني :

مامررت بالسوسن الغض الا	كان دمعي لمقلتيَّ نديما
حبذا انت والمسمى به انني	وان كنت منه أذكى نسيما

فلما غاب سوسن ، امسكت عن هذا الصوت واخذت في غيره، فلم تزل تفعل ذلك حتى فطن المأمون ، فدعا بها ودعا بالسيف والنطع ، ثم قال اصدقيني امرك: قالت ياامير المؤمنين ينفعني عندك الصدق؟ قال لها إن شاء الله،فقالت: ياامير المؤمنين اطلعت من وراء الستارة فرأيته فعلقته ، فامسك المأمون عن عقوبتها وارسل الى المغني ووهبها له .

وكم من قينة ظلت حريصة على عهد صاحبها ، لا تنساه ولا تتناساه ، فقد روي ان قلم الصالحية لما اصبحت في حوزة الواثق بالله ، وامتنع ابن الزيات عن دفع ثمنها للرجل الذي كانت عنده ، لم تتورع عن مجابهة الخليفة بالحقيقة الراهنة ، فقالت له: (من رباني لم يظفر الا التعب والعزم ، ولم يظفر شيئا) فما كان من الخليفة الا ان امر لصاحبها بخمسة آلاف دينار ، وكم من قينة القت بنفسها في غياهب نهر دجلة ، لان من تحبه بعيد عنها ولا سبيل اليه . كذلك كان حب القيان ، حب عاصف عنيف فيه تضحية واخلاص ، وفيه هتك وفجور ، وكذلك كانت حياة القيان حياة مشرقة في حين ومعتمة في حين ، حياة تمضي حيثما اتفق وقد تركت في أثرها خطا من نور ونار .



ابراهيم الموصلي

اثارت نزوات ابراهيم ، حفيظة اهله وذويه ، فقد عز عليهم ان ينصرف هذا الفتى الصغير ، الى اشياء لا خير معها ولا نفع فيهـا ، وان يمارس صنعة ، لا تجلب الا الضر ولا تحمل في اطوائها الا سبة الدهر ، فقد كان شأن الغناء في ذاك الزمن شأن كل فن جميل ، لا حرمة لصاحبه ولا مكانة للأخذ باسبابه ، ولكن الفن الغنائي ، كان ينبع من قلب ابراهيم ، ولم يكن في مقدوره الصدوف عنه ، كان الفن حياته ومادة وجوده ، وجد فيه مدى لروحه الشاعرة وصدى لنفس مرهفة حساسة ، فلما ضاق بتعنيف اهله وبرم بلوم ذويه ، غادر الكوفة ، الى الموصل ، املا منه في ان يجد في هذه المدينة ، الافق الرحب ، الذي يتجاوب مع طبيعته النفسية ، فينطلق على هواه ، لا رقيب ولا حسيب ، ولكن ما امله ، سرعان ما خاب ، فعاد إلى الكوفة ، عاد وهو يعتقد ، بان بعده عنها سنة كاملة ، قد يردع المتزمتين ، فـلا يعاودون اللوم والتأنيب ، ولا يتجنون عليه ، فيما هو منصرف اليه ، من حب للفن وكلف بالفن ، غير أن هذا الاعتقاد ، كان في غير محله ، فمدينة النحو واللغة وفقه اللغة ، ما كان في مقدورها ان تغضي الطرف عن هنات فنان يعتد بشخصيته ويتيه على الناس بعبقريته ، ويرى في الفن رسالة الحرية والجمال ، فاحساسه المرهف مـا كان ليطيق النقد ولا التجريح ، وبيئة الكوفـة المحافظة ، مـا كان في وسعها ، الاستجابة الى ما هو في سبيله ، وذاك اللقب « الفتى الموصلي » الذي لاحقه بـه الناس ، انى اقام وحيثما توجه ، ما كان ليستهويه ، بلى ان كل هذه الاشياء تضافرت معاً ، لتحمله على الفرار من جديد من الكوفة ، فمضى الى الابلة ، تلك المدينة — الشعرية ، المدينة التي كانت معقلا من اروع معاقل الغناء العربي والعجمي ، فعاش حياته ، يغني ويتعـلم الغناء ، ويشرب ويسرف في الشراب ، هنا وهناك ، كانت الفتوة وزهوتها المشرقة ، تدعوه ، فيستجيب الى ندائهـا ، لا يعيش الا ليومه ،

وليومه وحده . ولكن شغفه بالموسيقى ، كان من القوة ، بحيث انه كان دائماً وابداً ، يتطلع الى طلب المزيد ، فبعد ان استنفد ما تناهى اليه في الغناء ، في هذه المدينة ، شد الرحال الى الري ، فقد تسامى اليه ان مجوسياً يقيم في هذه المدينة، وانه ضرب بسهم وافر في علم الموسيقى ، فلما اجتمع الى هذا المعلم الكبير ، وجد فيه الامل المنشود ، لقد كان فارسياً مثله ، تجمعه به رابطة الجنس والاصل ، فأقام عنده يغنيه ويستمع اليه ، حتى ذاع صيته واشتهر اسمه ، فاستدعاه والي المدينة ، وطلب منه الاقامة في قصره وحضور مجالسه ، ولكن الفتى الموصلي البوهيمي الافاق ، رفض التماس الوالي ، كان يريد ان يعيش حراً طليقاً ، بلبلاً يغرد على هواه ، في دنيا لا حدود لها ولا نهاية ، كان يريد ان يعيش للفن ، لا تملى عليه اغنية ولا يفرض عليه لحن ، اما القصور والحياة الناعمة ، فما كانت لتغويه وتغريه، وذلك لان حريته كانت عنده اغلى من كل شيء ، فلما قال لوالي مدينة الابلة : انا اغني للذتي الشخصية ، ساور الوالي الدهش ، فقد كان الاقتراح الذي عرضه على الفتى الموصلي غاية ما تصبو اليه نفوس المطربين ، وتشرئب اليه اعناق المغنين ، فما كان منه إلا ان ألح في الطلب ، واشار بطرف خفي الى النتائج غير المستحبة التي يتعرض اليها، فيما اذا لم ينزل على ارادته ، فما كان من الفنان ، الا ان رضخ ، وهو لذلك كاره.

وهكذا انتقل ابراهيم الموصلي من بيت حقير الى قصر منيف وثير ، ومن حياة بوهيمية مشردة ، الى حياة مورقة مثمرة ، يغني ويضع الالحان ، ويصوغ الشعر وينظمه ، يوصل الصبوح بالغبوق ، والغبوق بالصبوح ويتعلم آداب مجالس الامراء، تلك الاداب التي كان لا بد منها ، لفنان يعيش في ظل قصر امير ، ويظهر أن القدر الذي اعده ليكون مطرب بلاط الرشيد ، كان يهيء له كل الاسباب ، للوصول الى هذه الغاية ، فقد اتفق للمهدي ، ان بعث باحد اتباعه ، يتفقد شؤون الولاة ، فلما حط في مدينة « الري » استدعاه واليها اليه وحضر مجلساً من مجالس ابراهيم الموصلي الغنائية ، فأدرك موفد المهدي ، ان هذا الفنان لا يصلح لقصر امير بقدر صلاحه لبلاط خليفة ، ان مواهبه الفنية ، في وسط نظير وسط بغداد ، ستكون اوفر ازدهاراً ، من وسط نظير وسط الري ، فلما وصل الى عاصمة المملكة الاسلامية ، حدث الخليفة بقصة ابراهيم الموصلي ، فما كان من المهدي ، الا ان اوعز الى والي

الري ، باشخاص الفتى الموصلي اليه .

• • • •

لقد كان الحظ يسير في ركاب ابراهيم الموصلي ، دون ان يفكر هو نفسه ، بان العناية الالهية ، كانت ترمقه بعطف ، ودون ان يحلم في يوم من ايام حياته ، بانه سيقدر له الشخوص الى بغداد ، ليكون مطرب الخليفة ، فلما وصل الى مـــدينة السلام ، ووقف بين يدي الخليفة ، وتكلم ، آنس الخليفه في الفنان ، موهبة اذا تعهدت بالعناية ، تفتحت عن عبقرية مبدعة ، فقربه اليه وحـذره من الاسترسال مع الغواية ، ان بغداد حاضرة الاسلام ، مدينة فيها من المغريات ما يغوي الناسك ومطرب الخليفة يحسن به ، ان يكون في معزل عن هذه الغوايات ، فالخليفة مؤمن غيور ، وهو حريص على ان يتحلى رجال بلاطه بصفاته ، فلما لفت نظر الفنان الى هذه الناحية ، عاد ابراهيم الموصلي ، ليردد امام المهدي ما ردده امام والي الري ، انه فنان ولا قبـــل له بحياة لا تمت الى الفن بصلة ، وانه تعلم صناعة الغناء لذته وعشرة اخوانه ، وتجاهل المهدي هذه الملاحظة ، وضمه اليه ، بعد ان حظر عليه حضور مجلس ولديه الهادي والرشيد .

ولكن طبيعة ابراهيم النفسية من ناحية ، وبيئة بغداد من ناحية اخرى ، مـا كان في مقدورها ، الاذعان لتحذير الخليفة ، كان ابراهيم الموصلي ينشد الفن لذاته ، وكان الشراب في ذاك الزمن من مستلزمات الغناء ، وقد عد البغداديون الغناء بدون شراب عربدة ، وكان وسط بغداد ، المرح المنطلق الصداح ، وسطاً مواتياً خصباً ، لشخصية نظير بشخصية ابراهيم الموصلي ، فليالي بغداد الساهرة في القصور والدور وعلى حراقات دجلة ، وقيانها وجواريها ، ومغنوها ومطربوها ، وظرفاؤها وندماؤها ، اشياء تستهوي لب الحصيف الحليم ، فكيف بابراهيم الموصلي ، المتلهف للتمتع بالمباهج ، التواق للمفاتن ؟ انه الآن في المدينة التي خلق لها وخلقت له ، انه شاب يزخر وجوده بالفتوة ، وانه فنـان ينثر الجمال ، هنا وهناك ، فانطلق حيثما اتفق يشرب ويغني ويلهـو ، ويغشى مجالس الهادي والرشيد ، ويغني في حضرة الاميرين ، دون ان يحفل بتحذير الخليفة او يأبه بعقاب الخليفة ، ولما تناهت هذه الانباء الى مسامع المهدي ، غضب على الفنان ، فاستدعاه اليه ، وجلده وحبسه ، وما كان في مقدور الاميرين الهادي والرشيد ، ان يتدخلا في الامر ، لئلا ينالهما من

تقريع الخليفة ما لا يستحب لمثليهما ، ولم يعذر الخليفة الفنان ، كما انه لم يدرك طبيعته النفسية ، فقد كان من الصعب على ابراهيم ، تجاهل دعوة الاميرين ، كما كان من الصعب على ابراهيم رفض هذه الدعوة ، كان يعلم ان الهادي ، سيكون خليفة وان الرشيد ستنتهي اليه الخلافة بعده ، فمن ذا الذي يضمن له عاقبة الرفض ؟ ومن ذا الذي يضمن له النجاة من العقاب الذي قد ينتظره ؟ وكانت مجالس الاميرين ، خالية من وقار بلاط المهدي ، هذا الوقار الذي فرضه تزمت الخليفة ، والذي ما كان يتجاوب مع خلق ابراهيم ولا مع مرحه وانطلاقه ، أكان في الامكان ، والحالة هذه ، ان يصيخ ابراهيم الى تحذير المهدي ؟ أكان في الامكان ان يحبس نفسه في قفص ، بدلا من الانطلاق في الفضاء الرحب ؟ ان القيد الذهبي الذي اراده له المهدي ، لم يخلق لساعدي ابراهيم ، والانامل التي ابدعت لتلعب على الاوتار ، وتضفي على الوجود ، اروع ما يجيش في صدر صاحبها من مشاعر وافكار ، ما كان لمثلها ان ترسف في الاغلال ، انها من الفوضى تبدع النظام . وما توقعه ابراهيم ، وما حذره ابراهيم ، ما لبث ان آل الى حقيقة راهنة ، فقد استدعاه موسى الهادي ، عقب تقلده مقاليد الخلافة ، وأنبه على ما سبق منه ، ولو لا حسن تخلص ابراهيم ، لكان نصيبه من الخليفة الجديد ، لا يقل عن نصيبه من الخليفة الراحل ، جلد وسجن . وعاش ابراهيم الموصلي ، في انعم بال واحسن حال ، يمنحه موسى الهادي الجوائز التي لم يمنح مثلها غيره من المغنين ، ويهبه من العطايا ما لم يحظ بنظيره سواه من المطربين ، فقد قيل ان موسى الهادي اعطاه في يوم واحد مائة وخمسين الف دينار ، الامر الذي حمل اسحق بن ابراهيم على القول (لو عاش لنا الهادي لبنينا حيطان دورنا بالذهب والفضة) ، ولكن ايام موسى الهادي لم تطل ، والفجر الفني الذي كانت الغيوم تحجبه ، بين حين وحين ، ما لبث ان سفر في عهد الرشيد ، فاذا به يتألق واذا به يشع ، والفنان الذي كان مغنياً لا اقل ولا اكثر ، اصبح نديماً يلازم الخليفة في حله وترحاله ، فيقرن اسمه باسمه ، ليؤلفا معاً ، اسطورة الف ليلة وليلة ، لقد وجد ابراهيم في الرشيد ، الخليفة المنشود ، الخليفة الذي يقيم المجالس الغنائية ، ويستمع الى المغنيين والمغنيات ، وترقص في حضرته مئات الجواري ، الابلى والدستنذا ، وتنطلق على الكرج ، رشيقة خفيفة ، ويقف في بلاطه الشعراء ، يمدحونه ويمجدونه ، في هذا الجو الشعري اقام ابراهيم الموصلي ينال صلات الخليفة وصلات البرامكة ، دنيا مترعة الكأس ،

تفيض على انغام وتسبح في احلام ، ولكن هذه الشعلة الفنية ، التي ظلت تتقد على موائد الخلفاء والامراء ، فتربق الانوار على من حولها ، ما لبثت ان خبت ، فعز على الرشيد ضياع هذه الثروة الضخمة ، فزار ابراهيم وهو عـــلى فراش الموت ، وبعث ابنه المأمون ليسير في موكب الفنان، حيث يواري التراب تلك الشعلة الخالدة

الى جانب هذه الناحية السافرة من حياة ابراهيم الموصلي ، فقد كانت هناك ، ناحية خاصة بالفنان وحده ، ناحية حياته لنفسه ، وما تحمله هذه الحياة ، من آمال وآلام ، فقد احب ابراهيم ، كما احب غيره من الفنانين ، احب المطربة ، ذات الخال هذه الفنانة التي احبها الخلفاء كما احبها المطربون والشعراء ، فقد كانت ذات الخال ، من ذاك الضرب من النساء ، اللائي توفرت لهن موهبة فن الاغراء ، كانت امرأة جميلة رشيقة ، وكانت تعرف اثر هـــذه الرشاقة وذاك الجمال في النفوس ، فاستغلت ما حبتها به الطبيعة ، لتفتك بالقلوب وتعبث بالعقول ، ولم تتعلم الغناء واصوله ، للفن الغنائي ذاته ، وانما جعلت منه وسيلة لغاية ، كانت ذات الخال امرأة تواقة الى القصور المنيفة ، تواقة لان تكون سيدة من سيدات المجتمع ، فلما استدعى سيدهـــا الفنان ابراهيم الموصلي ، ليعلمها الغناء ، وجدت في ابراهيم ضالتها المنشودة ، انها الآن جارية مغمورة ، وليس في بغداد مثل ابراهيم الموصلي ، من يشيد باسمها ويرفع ذكرها فنصبت حوله الشباك ، ليقع فريسة عاجزة ، لا حول لها ولا طول ، وسقط ابراهيم ، سقط في الفخ المنصوب ، فراح ينظم فيها القصائد ويلحن ويغني هـــذه القصائد ، في منزلها وخارج منزلها ، حتى اشتهر امرها وذاع صيتها ، واتفق للخليفة هرون الرشيد ، ان سمع في مجلس من مجالسه الغنائية ، قصيدة من قصائد ابراهيم الملحنة في ذات الخال ، فاستدعي مولاها واشتراها منه بسبعين الف درهم . هنا انبثقت آلام ابراهيم وتفجرت ، فقد كان يتوقع كل شيء إلا ان تفلت من يده ذات الخال ، وتذهب الى بلاط الرشيد ، حيث لا امل بلقاء ولا رجاء بوصال . كان الخليفة خصمه واني لمثله انتزاع ما بيد الخليفة ؟ وجاشت نفس ابراهيم بأرق القصائد وأشجى الالحان ، وراح يذكر تلك المرأة التي خانت العهد ، وبالوعود والمواثيق ، ولكن ذات الخال تجاهلت وتناست هذا كله ، فقد باتت جارية من جواري الخليفة ، لا بل من احبهن اليه وآثرهن عنده ، ويظهر ان قصائد ابراهيم والحان ابراهيم ، اثارت الشك في نفس الخليفة ، فلما كان في مجلس

من مجالس الشراب ، سألها الرشيد ، فيما اذا كانت ثمة علاقة بينها وبين ابراهيم ، فلم يسع ذات الخال إلا ان تجيب بالايجاب ، فعز على الخليفة ان يشاركه فيمن يحب ، مخلوق نظير ابراهيم الموصلي ، وأطل عليه ماضيها الحافل بالصبوات الزاخر بالنزوات ، فكرهها واجتواها ، ثم وهبها الى حاجبه حمويه ، ولكن هذا الكره الذي ساوره ، ما لبث ان تبدد ، فقد عاد طيف ذات الخال يطرق بابه ، مذكراً اياه ، بتلك الليالي الحلوة ، فذهب الى دار حمويه يستمع الى صوت ذات الخال ويمتع النظر بذات الخال ، ولما سألها حاجتها ، كائنة ما كانت ، ترامت على أقدام الخليفة ، وطلبت لسيدها ولاية الحرب والخراج في فارس ، وكان لذات الخـــال ما ارادت .

لم تفكر ذات الخال بابراهيم ، بل فكرت بتحقيق الاحلام التي طالما راودت مخيلتها ، كانت تتوق الى ان تكون سيدة قصر ، وها هي ذي الاماني ، تغدو حقيقة راهنة ، اتتخلى عنها ، لاجل مطرب ؟ وما شأن ابراهيم في هذه الحياة الدنيا ؟ انه مغن ، يطرق دور الخلفاء والامراء ليتكسب بفنه الغنائي ، ومثل هذا الرجل لا يملأ خواء حياتها ، ولا يروي عطشها المتطلع المتلهف الى المزيد . اما ابراهيم فقد كانت نكبته في هذه المرة ، اشد منها في المرة الاولى ، فقـد كان تصور الوهم ، يحمله في كثير من الاحايين ، على الاعتقاد بان ذات الخال ستعود اليه ثانية ، وانها لن تنسى حبه ولن تجحد فضله ، ولكن ما امله ما لبث ان خاب ، فقد ذهبت ذات الخال ، لكيلا تعود ابداً . اما جمال الفن الذي يتحلى به ، هذا الجمال الذي كان يميل اليه ، ان له اثراً في قلب ذات الخال ، فقد كان مجرد سراب في نظر هذه المخلوقة ومن هنا نشأت مأساة ابراهيم ، فقد كان شأنه شأن سائر الفنانين ، يحب ويظن ان جمال فنه ، المنبثق من اعماق وجدانه ، يربو عـــلى وجوده ، جمال الفن وجلاله ، فيندفع في الحب ، وهو مؤمن بهذه القوة السحرية ، ولكن المحبوبة التي اخـذت بتهاويل الفن ، لا تلبث ان تستفيق ، فاذا بالنشوة التي خامرتها وهي تصيخ الى اناشيد القلب وتراتيل الحب ، تزول وتتلاشى ، واذا بمعزوفة الخلود ، تضمحل .

هذا كان حال ابراهيم الموصلي مع ذات الخال لقد ذهبت الى فارس مع حمويه لتظل فيها سبع سنين ، اما هو فقد انطوى على جرحه ليغني !

جزى الله خيراً من كلفت بحبه ... وليس له إلا التموه من حبي

ابراهيم بن المهدي

لم يدر بخلد العباسيين في يوم من الايام ، ان يقدم المأمون ، على العهد بولاية العهد ، الى رجل لا يمت الى البيت العباسي بصلة ، فاذا اغضوا الطرف ، على النهاية الاليمة التي آلت اليها حياة الامين ، فليس في مقدورهم ، ان يقفوا موقف المتفرج ، من انتقال الخلافة من بيتهم الى البيت العلوي ، وهم الذين انتزعوها بالقوة من الامويين ، فالخلافة في عرفهم ، امانة في عنق الخليفة ، ولا يسوغ في حال من الاحوال ، ان يعبث الخليفة ، بهذه الامانة ، فينقل السلطان من بيت الى بيت . كان العباسيون يعتقدون بأن الخلافة حقٌ من حقوقهم المكتسبة ، وعلى الخليفة ان يصون هذا الحق ويناضل دونه ، فاذا ما تخطاه وتجاوزه ، لم تعد طاعته واجبة عليهم ، ولا رعايته ملزمة بهم ، وكان ابراهيم بن المهدي ، من اشد العباسيين ، انحرافاً عن البيت العلوي ، فلما رأوا ان المأمون ، جاد في عهده بولاية العهد ، لعلي بن موسى الرضا ، لم يجدوا مندوحة ، من مبايعة ابراهيم بن المهدي ، انه ابن خليفة وشقيق خليفة وعم خليفة ، ومن ذا الذي يساميه في المكانة ؟ ولكن الذين ارتأوا هذا الرأي من أفراد البيت العباسي ، لم يمعنوا النظر في طبيعة شخصية ابراهيم ، صحيح ان ابراهيم ، هو ابن المهدي واخو الرشيد وعم الامين والمأمون ، وصحيح ان ابراهيم من اشد الناس انحرافاً عن علي بن ابي طالب ، ولكن ابراهيم لم يخلق ليكون خليفة ، كان فناناً في اعماق روحه ، ان احلام الفن ورؤاه ، كانت الافق الحقيقي لدنياه ، فهو اذ ينظر الى الاشياء ، لا ينظر اليها بعين الرجل الذي يعيش فوق الارض ، بل بعين الرجل الذي يحلق في عالم اللانهاية ، كان الفن وجوده ولا شيء آخر غير الفن ، فلما تقلد مقاليد الحكم ، تناثرت تلك الباقة الجميلة ، هنا وهناك ، ثم ما لبثت ان صوحت ، فوق بلاط الخليفة ، ذلك لان تلك الباقة ، لم تخلق إلا للحدائق الضاحكة ، وهكذا تمرد اهل بغداد على ابراهيم بن المهدي ،

ونفض يده منه اولئك الذين غرروا به ، ولما احس ابراهيم بالخطر ، صلى بالناس يوم النحر ، واختفى في اليوم الثاني ، اختفى عن اعين الناس ثلاث سنوات ، بعد ان ظل متربعاً على عرش الخلافة سنة وبعض سنة . لقد كانت الخلافة لابراهيم ، فاتحة نكبة أليمة ، فقد جعل المأمون لمن دل عليه ماية الف درهم ، وانه مبلغ ضخم يغوي ويغري ، فانبثت الارصاد وانطلقت العيون ، رجال ونساء يعدون في اثره ، اما ابراهيم فقد كان يدور ويلوب ، في كل يوم ، لا بل في كل ساعة ، خوف يرنو اليه ، وجزع يشل يديه ، لقد تخلى عنه الناس ، وتألبوا ضده ، وها هو ذا الآن فريسة وحدة رهيبة ، يضطرب من ظله ويرتجف من خياله ، اما اولئك الذين مدوا اليه يدهم بالعهد ، من البيت العباسي وغير البيت العباسي ، فقد تنكروا له في هذه الحقبة من الزمن . عرف ابراهيم بن المهدي الناس ، عرف ان الصدق والاخلاص والشرف ، ليس في تلك القصور المنيفة ، بل في تلك البيوت الصغيرة الحقيرة ، في بيوت افراد الشعب ، فاذا تجاهله السادة وانكره الاعوان وخـــذله الانصار ، فالحفاة العراة ، لم يتخلوا عنه ، فقد فتح له بيته وهو العليم بأمره ، فرد من افراد الشعب ، وكان من السهل اليسير على هذا الفرد ، ان يظفر بجائزة المأمون لو دل عليه ، فيغدو بذلك غنياً موسراً ، ولكن نبله الاصيل ابى عليه ذلك ، لا بل رفض ان يأخذ درهماً واحداً من ابراهيم بن المهدي ، لينفقه عليه وهو في داره . قال له وهو يودعه (الصعلوك من لا قيمة له عند اهـل الرياسات ويظنون فيـه الظنون الرديئة) ولما خرج ابراهيم وذهب وهو في زي امرأة ، كان الذي دل عليه ، احد اولئك الذين عاشوا بخيراته ، ونعموا بهباته ، ولكن العمل الصالح ، ما كان ليذهب جفاء ، فقد استطاع ابراهيم ، بفضل بديهته المتوقدة ان ينقذ نفسه من الموت ، وان يظفر بجائزة لأولئك الذين عطفوا عليه في ايام بؤسه .

وعاد ابراهيم سيرته الاولى ، عاد الى دنيا الفن وعالمه ، عاد في هذه المرة ، وهو لا يفكر إلا فيما خلق له ، يدخل على المأمون في ثياب وزي المطربين ، ينشد بين يديه قصائده ويغني امامه ألحانه ، اما تلك الطمأنينة التي نعم بها في سالف عهده فقد هجرته وزايلته ، وظل طوال خلافة المأمون ، في قلق وجزع لا يستقر له حال ولا ينعم له بال ، فاذا اطفأت الايام حفيظة المأمون ، فقد كان هناك من يوقظ الحفيظة ويوغر الصدر .

فلما مات المأمون ، شعر ابراهيم بأن حياته ردت اليه ، لقد تبذل امام المأمون وخلع العذار ، وتنامى انه من البيت المالك ، ليحمل المأمون على الاعتقاد ، بأنه ليس غير فنان بسيط مثل سائر الفنانين ، لا يحلم بملك ولا يفكر بسلطان ، فعل ذلك كله ، لانه كان يتصور كما قال لخارق، بأن المأمون (لم يبق عليه محبة فيه ولا صلة لرحمه ولا رباء للمعروف عنده ، ولكن ليسمع منه مـا لا يسمع من غيره) فالخليفة الذي لا يظهر للندماء عدة اعوام ، حتى يظفر به ، لا يصفح بسهولة ولا ينسى بسرعة ، ولا يبقي على خصمه دون ما غاية ودون ما هدف .

وهكذا انقلبت حياة ابراهيم بن المهدي ، بين رفع وخفض ، عاش حياة فنان كما عاش حياة سلطان ، لم يسلم في حياته السياسية من نقمة الخلفاء الحاكمين ، كما لم يسلم في حياته الفنية من نقمة الفنانين ، كان اسحق الموصلي ، يناصب ابراهيم بن المهدي ، عداء لا هوادة فيه ، كان كل واحد من الفنانين ، ينحو منحى غنائياً مختلفاً . وكان كل واحد من الفنانين ، ينافس الآخر لدى الخلفاء ، ليظفر بالجائزة الكبرى ، ولم تكن صلة الرحم ، لتحول بين الخلفاء وبين حبس ابراهيم ، فكم من مرة زجه الخليفة في السجن ، وكم من مرة غضب عليه ونبذه وجفاه .

ومن ظلمة الالم وبسمة الامل ، نبعت حياة ابراهيم ، وتدفق الينبوع ، ليغمر الارض القاحلة ، ليغمرها بذاك الفيض المبدع الملهم .

كانت المعركة بين اسحق الموصلي وابراهيم بن المهدي معركة القديم والجديد ، هذه المعركة الابدية التي لا تخبو لها نار ولا يخمد لها اوار ، فقـد كان اسحق الموصلي من اولئك الفنانين الذين يمجدون التراث الغنائي القديم ، ويرون فيه المثل الأعلى الجدير بالاتباع ، وليس على الفنان المعاصر إلا السير على غرار الفنان القديم ، يحذو حذوه ويتبع ظله ، وكل تبديل وكل تعديل ، يدخل على هذا التراث ، جريرة لا تغتفر ، فللقديم حرمته ، ان هيكله المقدس ارث الاجيال ، الاجيال التي عملت متعاقبة على ابداعه ، ثم وهبته لحياة خالدة ، ليبقى رمزاً ابدياً لعبقرية الانسان . على حين ان ابراهيم بن المهدي ، كان ينكر على اسحق الموصلي هـذا الاعتداد القديم ، لان الحياة لا تبنى على الموت ، الحياة ابتكار مطرد في كل حقبة يضيف الانسان على التراث القديم شيئاً جديداً ، وكل اخذ بأسباب القديم وتقاليده ، تعطيل لمدارك الفكر الخلاق ، فاذا كان انصار القديم يعتقدون بأن العبقرية الحقة

هي في الخضوع للقواعد المقررة، والتمرد على هذه القواعد، لن يؤدي إلا الى الفوضى فان انصار الجديد، يعتقدون بأن الاثر الفني مهما غالى في عفويته، فهو في الحقيقة خاضع لقانون متسق قائم في اعماق الوجدان الانساني، اذ لا شيء في هذا الوجود، إلا وهو خاضع لقانون مرصود، وان الجديد ظفر للحياة. وكان اسحق الموصلي في نضاله دون القديم يناضل دون التقاليد، كان اسحق الموصلي مطرب البلاط الملكي والبلاط محافظ، وبقاؤه مرهون على هذه الكلاسيكية التقليدية، على حين ان ابراهيم بن المهدي، كان متمرداً على البلاط، ثار ضده وشق عصا الطاعة عليه، فهو متمرد وثائر بطبيعة الحال، على كل ما يتصل بالبلاط وتقاليده، فبينما كان اسحق الموصلي يتقرب الى البلاط برجعيته المحافظة، كان ابراهيم المهدي يحاول تحطيم هذا البلاط، بتحطيم اوابد تقاليده، الاول كان لا يقر ادخال أي تبديل أو أي تعديل على الفن القديم، لان هذا التعديل وذاك التبديل، نتيجته غير المباشرة تقويض لدعائم النظام القائم الذي ينعم في ظله، بما يحب ويشتهي، والثاني يقر التبديل ويرحب بالتعديل، لانه في نتيجته، غير المباشرة، تحقيق لما يصبو اليه، من تقويض للنظام القائم، الذي يكرهه ويجتويه، ولا يجد في ظله ما يحب ويشتهي كان الفن صورة لحياة، هذا يريدها على وجه، وذاك يريدها على وجه آخر، وهكذا كان الفن في جميع مراحله معبراً عن اتجاهات اجتماعية في اشكال وألوان ذاتية.

وقد ذهب المؤرخون الى القول ان ابراهيم بن المهدي، لم يقدم على تحريف القديم إلا لتقصيره عن ادائه، والحقيقة ان جرأة ابراهيم بن المهدي على القديم، لا ترجع الى تقصير ابراهيم بن المهدي عن أداء القديم، بقدر ما ترجع الى تلك الثورة الكامنة في نفسه، الثورة ضد النظام القائم الذي ما كان في مقدوره البقاء، لولا تمجيد الماضي وتقاليد الماضي، ومهما كانت البواعث الاصلية لهذا العامل الفني، فالامر الجدير بالملاحظة، هو ان ابراهيم بن المهدي، استطاع ان يحرر الغناء العربي من قيوده الكلاسيكية، استطاع ان يزحزح الاعتقاد السائد، بأن الاشياء في هذه الحياة الدنيا، ثابتة وذات صفة مقررة، وان يدخل في روع الناس ان تحطيم الاوابد المقدسة، لن يغير من الحقيقة شيئاً، اذ بوسع المطرب ان يغني كما يشتهي، لا كما تقضي بذلك قواعد القديم المقررة، وان يوقظ الاحساس بالجمال ولو تخطى

التقاليد . وقد كان لهذا العمل الذي وصف بأنه جرأة ، أثره البعيد في تاريخ الغناء العربي ، اذ نشأت مدرسة جديدة بزعامة ابراهيم بن المهدي ، مدرسة ضمت مخارق وشارية ، وتابعت هذه المدرسة طريق نموها التاريخي ، في عصر توفرت فيه كل وسائل ازدهار الغناء ، فمخارق كان مولى لمغنية قديمة ، تدعى عاتكة نشأ في بيتها ودرج في رعايتها ، ثم ما لبث ان اشتراه ابراهيم الموصلي فثقفه وعلمه ، حتى صار في عداد كبار مطربي العصر العباسي ، قال عنه ابراهيم الموصلي وهو غلام (لم تملك العرب ولا العجم مثله ولن يكون مثله ابداً) وذاع اسم مخارق حتى وصل الى مسامع الخليفة هرون الرشيد ، فقربه اليه وحباه المال والضياع والدور) فعاش في نعمة سابغة لا يعكر حياته إلا ذاك النزاع القائم بينه وبين ابن جامع فقـــد كان مخارق يحفظ من اول مرة اللحن الذي يسمعه ، فاذا ما غنى ابن جامع بين يدي الخليفة ، نسب مخارق اللحن لنفسه ، فيثور ابن جامع ويغضب ، ويستقبل مخارق هذا الغضب وتلك الثورة ، ببسمة عابثة عريضة ، ثم يمضي ، ويمضي دون ان يلوي على شيء ، وكان مخارق يقدر موهبته الصوتية حق قدرها ، وقف مرة في باب السلام والناس في طريقهم الى الحج ، فقال لأحد أصحابه لقد كان ابن سريج يقف في مواسم الحج ويغني ، فيصرف الناس عما هم في سبيله ، وانا الآن صانع ما صنعه ، وأذّن مخارق فتوقف الناس يصغون الى صوته ، وهرعوا من كل حدب وصوب ، الى حيث هو واقف ، يرهفون الاذان ويصيخون السمع ، وبالرغم من نشأته في المدينة معقل الغناء الكلاسيكي ، وبالرغم من أخذه الغناء عن ابراهيم الموصلي زعيم الغناء الكلاسيكي فقد حرر نفسه من ربقة القديم ، وسار على غرار ابراهيم بن المهدي ، لا يقيد نفسه باسلوب القدامى ، ولا بطريقتهم الغنائية . وشارية كانت جارية من جواري ابراهيم بن المهدي نفسه ، اشتراها ابراهيم وهي فتـــاة صغيرة فعهد بها الى قيّمة جواريه ، حتى اذا شبت تولى ابراهيم بن المهدي تعليمها ، علمها اصول الغناء ورواية الشعر ، واخبار العرب ، وما الى ذلك من المعارف الضرورية اللازمة ، لكل قينة من قيان العصر العباسي ، وكانت شارية امرأة جميلة فنانة ، حاول أخصام ابراهيم بن المهدي ، انتزاعها منه بدعوى انها قرشية الاصل ، اختطفت وهي صغيرة من الحجاز ، ثم جلبت الى البصرة ، فأوغروا صدر المعتصم ضده ، فما كان من ابراهيم بن المهدي إلا ان تزوجها ،

فحال بذلك دون المؤامرة التي دبرت ضده ، وهكذا نشأت شارية في حجر ابراهيم تغني شعره ، وتردد ألحانه ، واشتهر اسمها وذاع صيتها ، فغنت بين ايدي الخلفاء ، ونالت جو ابراهيم ، كما علمت جواري الخلفاء ألحان سيدها ابراهيم ، كما شأنها مع (طباع) جارية الواثق ، وما يقال عن المطربة شارية والمطرب مخارق ، يقال عن غيرهما من المطربين الذين اخذوا بأسباب طريقة ابراهيم بن المهدي الغنائية ، فقد كان أفراد هـــذه الطريقة لا يقنعون باحتذاء اسلوب ابراهيم بن المهدي الغنائي فحسب بل يلقنون غيرهم هذا الاسلوب ايضاً ، الامر الذي جعل لابراهيم مدرسة مطردة المضي والانطلاق ، مدرسة لا تلد بولادة ابراهيم بن المهدي وتموت بموته ، بل تظل قائمة تتابع تطورها التاريخي .

. . . . .

لما فند النقاد الذين يعظمون الاقدام على تغيير الغناء القديم ابراهيم بن المهدي قال لهم ابراهيم انا ملك وابن ملك ، اغنى كما اشتهى وعلى ما التذ . ولم يكن هذا الجواب مجرد فكرة عابرة ، وانما كان حقيقة حية ، كان ابراهيم بن المهدي يغني لنفسه ، ينشد الفن للفن ، ولم يفكر في يوم من أيامه ان يتكسب بالغناء ، ذلك لان الغناء بالنسبة له ، متعة معنوية ، احب الغناء منذ الصغر هو واخته (علية) ، كان كل شيء حوله يهيب به الى تذوق الحياة والتمتع بها ، على أكمل وجه ، فأبوه المهدي الخليفة المتعصب المتزمت ، لم يجد غضاضة في استدعاء ابراهيم الموصلي اليه ، ليغني بين يديه ، واخوه الرشيد ، لم يدخر وسيلة من الوسائل ليجعل من بلاطـه ندوة موسيقية ، تضم كبار مطربي العصر ، فبيئة مثل هذه البيئة ، جديرة بأن توقظ المواهب الفنية بالانسان ، وان تزود هذه المواهب فيما اذا كانت موفورة ، بالاحلام المجنحة فتنطلق هذه الاحلام مترافصة متموجة ، دنيا تفتحت اكمامها عن زهر وشعر ، لقد كان الفن بالنسبة لابراهيم بن المهدي ، فيض حيوية متدفقة ، لاقى وسطاً ملائماً ، فتجاوبت الشخصية مع الوسط ، فكان هذا الامير الفنان . ولم يشأ ابراهيم بن المهدي وهو في مستهل عهده بالفن ، ان يميط اللثام عن مواهبه الفنية دفعة واحدة كان اذا وضع لحناً من الألحـــان نسبه الى جارية من جواريه ، ذلك لانه كان يعتد بمركزه الاجتماعي ، ويحرص على السمو بنفسه عن هذه الصناعة .

كان ابراهيم بن المهدي يحترم نفسه ، فلا يغني إلا وراء ستر ، لا بل ان اعتداده بمركزه الاجتماعي ، حمل الرشيد ، على رجائه في تشريف جعفر البرمكي بالغناء أمامه . كما كان يعلم ان الفن الذي يأخذ به في أوقات فراغه ، حقيقة علمية تتوخى من صاحبها ثقافة موسيقية عميقة ، اكثر مما تتوخى الهاما ومواهب مجردة ، فلما فشل في طلب الخلافة وأخفق في الحكم ، تخلى عن كبريائه العائلي ، وتهتك بالغناء وشرب النبيذ ، ولبس زي المغنين ، نفض عنه كل حرمة من حرمات البيت المالك ليعيش حياته ، حياة فنان بوهيمي ، ولما تمكن من فنه وآنس من نفسه القدرة على منافسة الفنانين ، نزل الى الميدان لا ليعهد الى جواريه بغناء ألحانه ، بل ليغني هو بنفسه ، ما ينظم ويلحن ، وفتح باب معركة القديم والجديد ، وجرأ المطربين على تحدى تراث الماضي وأمجاده .

وهكذا عرف التاريخ ابراهيم بن المهدي الفنان ، اكثر من معرفته له سليل بيت حكم وسلطان .

علية بنت المهدي

لم يكن للمرأة في تاريخ الموسيقى العربية ابان العصر الجاهلي من اثر يذكر ، اذ كانت المرأة نفسها خلال هذا العصر محرومة من الحقوق التي تجعل منهـا كائناً يشعر بوجوده ، ويؤمن بشخصيته . وبالرغم من هـذا الاهمال ، فقد لعبت المرأة الجاهلية دوراً خطيراً في تاريخ الموسيقى العربية ، فقد كانت تضرب بالدف اذا حمي وطيس القتال ، لتثير الحمية في نفوس المقاتلين ، وتردد الاهازيج في الاعياد الخاصة والعامة . ولم يحترف الغناء من النساء الا العدد اليسير ، ولكن هذا العدد لم يكن حراً ، وانما كان عبداً يشترى ويباع ، وكان هذا الضرب من الجواري المغنيات ، يغني في المواسم التجارية ، في سوق عكاظ وغير عكاظ ، ويهدى الى الملوك والسادة ، كما حدث ذلك للملك جذيمة الابرش ولجعدي بن زيد الشاعر الجاهلي المعروف ، ولم يحدثنا التاريخ العربي ، الا عن قينتين كانتا لعبدالله بن جدعان ، اهـداهما النبيل العربي للشاعر اميه بن ابي الصلت . فلمـا جاء الاسلام تطورت نظرة العربي الى المرأة ، ولم تعد مخلوقة لا حرمة لها ولا مكانة ، بل اصبحت كائناً له حقوقه المرسومة وواجباته المعلومة ، فالمرأة التي كانت متعة في نظر الجاهـلي ، والمرأة التي كانت عبئاً ثقيلاً على عاتق الجاهلي ، أصبحت دعامـة من أصلب الدعائم ، وركيزة من أقوى الركائز ، التي يقوم عليها المجتمع العربي ، وباتت المرأة في هذا الزمن مؤمنة برسالتها معتزة بكرامتها ، فقد اضفى التطور العربي ، على حياة المجتمع العربي ، معنى ساميا ، وجعل للمرأة مثلا أعلى وغاية نبيلة ، ايقظ في المرأة العربية شعورها بوجودها واحساسها بشخصيتها ، فكان من جراء هذه اليقظة ، تلك الخطوة الجريئة التي خطاها العرب في ميدان التطور اللا نهائي للحضارة الانسانية . ان العربي، الذي كان يعيش في واقعه المحدود واحساسه المادي ، استحال في هذا الزمن الى شخصية اخري ، شخصية جديدة ، قلب الاسلام ، تصورها وتصويرها لكل ما يقع تحت

متناول بصرها ، فمن الحس انتهى بهـا المطاف الى المعنى ، ومن الواقع الى المثل الاعلى ، ومن المادة الى الروح ، لا شيء من قيم الماضي ومفاهيمه ، الا ما يتجاوب مع العربي في انطلاقه الجديـد ، ولكن « غضارة الدين وشدته في ترك الفراغ وما ليس بنافع في دين ولا معاش » كما يقول ابن خلدون ، حالت في بادىء الامر، دون انبثاق فجر الموسيقى ، وبالتالي دون ظهور أثر المرأة في هـذا الفن ، وبالرغم من هذا كله ، فقد ظلت القيان في صدر الاسلام تغني في الاعياد والمواسم. وكانت هناك جوار حبشيات وغير حبشيات تغني في أيام الجمعة، وصناجات تضرب بالصنج »

أما في الميادين العامة، فقد كانت المرأة العربية، سواء اكانت مسلمة أم مشركة تحض المقاتلين على القتال باهازيجها ودفها، ففي معركة أحد كانت هند ام معاوية، تثير حماسة القرشيين بالضرب على الدف ، كانت تفعل ذلك وهي في ميدان المعركة غير هيابة ولا وجلة ، وبكى النساء غناء قتلى بدر ، قصائد غنائيـة تشيد بامجاد الابطال ومآثر القتلى .

ولكن هذه المرحلة من تاريخ العرب ، ما لبثت ان تلتهـا مرحلة جديدة ، جديدة في تصورها وتصويرها للاشياء ، فقد امتدت رقعة الفتح العربي ، حتى شملت معظم ارجاء العالم القديم ، فتعرف العربي الى انماط مختلفة من الحضارة وتأثر بما تعرف به وتناهى اليه ، فلم يعد يقنع بتلك الحياة البدوية الجافة ، التي كان يحياها ، بل راح يتطلب حياة جديدة تتجاوب مع تطوره التاريخي ، فظهرت القيان امثال « سيرين » القبطية الاصل وزرياب وخولة والرباب ورائعه وسلمى ، هذي القيان التي وصفت بانها كانت تغني غناء القدماء ثم جلب العرب الاماء والموالي الى الجزيرة العربية ، وكان في عداد هؤلاء الموالي اناس ضربوا بسهم وافر في الموسيقى فراحوا يغنون وهم يعملون في بناء الدور والمنازل ، فاستمع العرب الى غنائهم ، فطربوا لما سمعوا وركبوا على الالحان الاجنبية القصائد العربية ، وجعلوا من هذا المزيج المركب فناً غنائياً، فاقتبست الجواري هذا الغناء، فكانت جميلة وسلامة وحبابه.

اما المرأة العربية الصافية عنصرياً، فقد ترفعت عن مزاولة الغناء، كانت سيدة ، وكان الغناء صنعة الموالي ، ولا يليق بالسيدة ممارسة صنعة العبيد ، ومع هذا فالقينة في العصر الاموي ، كانت تتمتع بحرية ومكانة عظيمتين . صحيح ، انها كانت تباع

وتشترى ، صحيح انها كانت محرومة من الحقوق التي تنعم بها المرأة العربية ، ولكن الامر الجدير بالملاحظة ، هو انها كانت تتمتع بمكانة مرموقة ، حتى ان رجالات ذاك العصر ، لم يجدوا غضاضة في غشيان دور القيان . كان حسان بن ثابت شاعر النبي ، يطرق باب الفنانة عزة الميلاء ، ويستمع الى غنائها ويبكي ، كما كان عبدالله بن جعفر يزور جميلة المغنية ، ويحضر مجالسها الغنائية ، وكانت الواحدة من القيان تشتري حريتها بصوتها ، واذا لم يقدر لها ذلك كانت تتصرف بقدراتها بكل حرية ، فجميلة المغنية استقلت بنفسها ، بعد ان اعتقها سادتها لقاء مال وفير ، كانت اذا غادرت المدينة الى مكة ، ودعت وداع الملوك ، واذا وصلت اليها استقبلت استقبال الامراء ، وسار في ركابها السادة والشعراء ، ولم تكن هذه الفنانة لتضن على الشعب بصوتها الجميل ، كانت تفتح ابواب بيتها للناس تغني لهم ، دون ما اجر ودون ما ثواب . وصفها كتاب التاريخ والادب بانها كانت سيدة محترمة مصونة ، آلت على نفسها الا تغني الا في بيتها ، كائنا ما كان الرجل الذي يستدعيها الى منزله . وخليدة المكية رفضت الزواج من محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان ابن عم الخليفة ، ذلك لانه لم يشأ ان يكون الزواج على رؤوس الاشهاد ، وقالت لرسوله (اما نكاح السر ، فلا والله لافعلته ولا كنت عارا على القيان) ، هذا وخليدة المكية امة سوداء ترفض زواج السر ، لئلا تدنس سمعة القيان . وما يقال عن خليدة يقال عن سلامة . فقد احبها القس ، وكلف بها وهام من اجلها على وجهه . ولكنها ظلت حريصة على اسمها ، فلم تدنس هذا الحب بما يشينه .

ولكن هذا الخلق القويم ، الذي تحلت به المرأة الفنانة في العصر الاموي ، مالبث ان تلاشى في العصر العباسي ، فقد تبدلت القيم وتغيرت المفاهيم ، لم يعد للقينة حبها الطاهر البريء ، ولا سمعتها الطيبة الحسنة ، لم تعد تلك المخلوقة التي تأبى طرق دور الامراء ، وترفض زواجا غير شرعي من السادة الاثرياء ، لقد تبدل العصر ، وتبدلت نظرة الناس الى الاشياء. تبارى التجار في شراء وبيع الجواري المغنيات وانتشرت اسواق النخاسة ، هنا وهناك ، في كل مدينة وفي كل بلدة ، وقامت دور ابن سيرين ، وغير ابن سيرين ، في اعداد الجواري ، وراح ابراهيم الموصلي امام المغنين في العصر العباسي ، يعد المغنيات اعدادا خاصا ، يختار الجميلات من الجواري ويعلمهن

اصول البهرجة والزينة والتفتن في غواية الرجال ، فارتفعت اسعار الجواري ، حتى بلغ سعر الواحدة منهن الوف الدنانير . صارت القينة سلعة والمطربة متعة ، ففقدت المرأة الفنانة ، الاحساس النبيل بكرامتها ،والشعور الرفيع بشخصيتها . بات همها الوحيد في هذه الحياة الدنيا ، ان تحتفظ برقة صوتها ، ومفاتن جسدها ، ذلك لانها كانت تعلم ان حياتها موقوفة على هذين الشيئين ، وان فقدانهما لامعنى له الا ضياعها وضياعها الى الابد . ولم تكن المرأة الفنانة في العصر العباسي هي المسئولة عن هذا المصير المبتذل ، ان وضعها الاقتصادي ،هو الذي رسم لها مركزها الاجتماعي، كانت سلعة ، لاتتمتع بحق من الحقوق ، ولم يكن في مقدورها ممارسة الفن للفن نفسه ،اذ لم تكن للفن في ذاك الزمن من قيمة في حد ذاته ، فكان من نتيجة هذا كله ،ان فقدت مكانتها في المجتمع الذي تعيش بين ظهرانيه ، وحتى يتسنى لها البقاء في عالم تموج فيه الاهواء اتقنت فن الاغواء ومارست الاغراء ، وآثرت المادة على المعنى ونبذت الروح ، لتعيش بالجسد والجسد وحده ، اما تلك الكرامة التى كانت طابع العصر الاموي ، فقد خسرتها المرأة الفنانة في العصر العباسي ، ان حياة نظير حياة المطربة (دقاق) تعطينا صورة واضحة عن واقع المرأة القينة في العصر العباسي ، فقد كانت هذة المرأة لاتتورع عن العبث بقلوب الرجال ، توهم كل رجل عرفته ، انها تحبه دون سائر الناس اجمعين ، وانها تهبه من ذات نفسها مالم تهب غيره مثله ؛ فكان الرجال يتنافسون على مرضاتها ويتساقطون صرعى اهوائها العابثة .

* * * *

ولكن الفن الغنائي في العصر العباسي، لم يقتصر على طبقة معينة من المطربات. لم يقتصر على الجواري المغنيات بل تعداها الى قصور الخلفاء ، فطرق باب المهدي ليكشف الستار عن فنانة لعبت دورا خطيرا في تاريخ الغناء العربي ، ابان هذا العصر ، وهذه الفنانة هي عليه بنت المهدى . كانت ام علية (مكنونة) مغنية من مغنيات المدينة ،وصفت بانها من اجمل جواري المدينة وجها واحسنهن صوتا ، ومن مكنونة تعلمت علية الغناء ، بحيث ان الفن الغنائي كان طبيعة اصيلة من طبائعها النفسية ، تحدر اليها بالوارثة ، ونما وازدهر ، تحت تأثير عامل الوسط ، هذا الوسط الذي شرعت فيه انوار الموسيقى تشع وتتألق ، حاملة معها ماتناهى اليه العصر

العباسي ، من تطور عميق شامل ،تحدر الى علية بنت المهدى ، اعظم تراث موسيقي عربي ، ونبت هذا التراث ، في وسط غذته ماديا ومعنويا حضارة مشرقة زاهية ، فالتقت هذه الحضارة بذاك التراث ، فوق صعيد تفجر عن اعذب ينبوع . كانت علية بنت المهدي اميرة تنعم بحياة رضية فلم تتلق الفن لتكسب به قوتها اليومي ، وانما اخذته عن امها ووجدت فيه العزاء الروحي ، الذى يملا فراغ الحياة ان اميرة لاحظ لها من زواج ، ولا من اولاد ، تعيش في قصر ملكي ، ضربت حوله سجف من حديد ، بلى ان حياة مثل هذه الحياة خليقة بان تبعث الملال والضجر ، في نفس مرهفة حساسة ،وان تحمل الانسان على التحري عن افق ،ينسى فيه وجوده ويتلاشى في اجوائه الزاخرة الحافلة ، فالفن الغنائي لدى علية بنت المهدى لم يكن طبيعة اصيلة فقط ، وانما كان حاجة حيوية ايضا . وقد ساعد الوسط الذى عاشت في افيائه علية على تفتح فنها الغنائي ، كان كل شيء في هذا الوسط ، يدعوها لتهب الفن اروع التحف واجمل الاثار ،فاخوها ابراهيم يطارحها الغناء ،والرشيديغشى مجالسها الخاصة ويأخذ معه جعفر البرمكي ليسمع صوت الاميرة العباسية من وراء ستار ، لابل ان كلف الرشيد بعلية كان من القوة بمكان ، فقد صاحبه معه الى الري ، وغضب عليها لانها تأخرت في الحج ،وغنت للامين والمأمون، ودعت اليها ابراهيم الموصلي،واخذت عنه واخذ عنها ،وبعثت اليه بجواريها يطرحون عليه غناءها ويأخذن منه مايطرحه عليهن ، الى جانب هذا كله ، فقد كانت علية بنت المهدي ، شاعرة تنظم الشعر ، وتضع عليه اللحن ، ولم يكن الشعر في عرفها رسالة فنية ، وانما كان شأنه عندها شأن الغناء سواء بسواء ، فهي لاتنظم الشعر كما تقول الا (عبثا) وهي لاتراسل بالاشعار ، إلا من تختصه ، وبالرغم من هذه النظرة العابثة الى الفن ، فقد كانت تطيل النظر في الكتب ، الامر الذى اكسبها خبرة بالناس واحوال الناس .

ولكن الفن الذي كلفت به علية ، ما كان في مقدوره ان يشغل حياة لمرأة شابة ابد الدهر ومدى العمر ، لقد كان وجود علية بناديها ، وكان الفن ذاته يوقد

جذوة الفتوة الابدية ، ويوقظ الحس ويثير صبوات النفس ، كانت علية تعيش في قصر ملكي وآبدة تتحرك مع اوابد القصر ، ولكن هذا الوثن الانساني ،كان يحمل في تضاعيفه ، حياة متدفقة ، وليس في الامكان وأد هذه الحياة الحساسة الجياشة ، فاذا كان الفن فيض حيوية علية بنت المهدي ، فان هـذا الفيض ، لم ينبع الا من قلب يتضور لهفة الى حياة حافلة بالشباب ، وما يستدعيه هذا الشباب .

لقد كانت احلام الفن تنشد رمزا حيا ، رمزا تتدفق فيه الحياة ، ولكن أنى لعلية مثل هذا الرمز الذي تودعه افراح الفن واحلامه ؟ انى لها هذا الانسان الذي تبثه النجوى ، وهي المخلوقة التى حيل بينها وبين النور ؟

كان للخليفة هرون الرشيد خادم يدعى طل ، وكان هذا الخادم على جانب عظيم من الجمال ، ويظهر ان الاميرة الفنانة ، وجدت في هذا الخادم الامل المنشود ، انه نهلة ، اذا لم ترو ظمأ ، فهي مطفئة اوار عليل ، وملأ هذا الخادم خواء حياتها ، فلم تعد تفكر إلا به ولا تحلم إلا بصورته ، كان حبها لطل من القوة ، بحيث انها لم تتورع عن المخاطرة بحياتها ، فقد غاب عنها مرة ، فمشت اليه على ميزاب ، غير آبهة بما يحيق بها من خطر ، ولا حافلة بما يجره هذا الامر عليها من نتائج غير مستحبة ، لقد كانت قوة حبها ،مدفوعة بذلك الشعور الجارف ، بشعور الحرمان المكبوت ، هذا الشعور الذي تفجر دفعة واحدة ، فاندفع كالسيل يجرف امامه كل مايعترض سبيله ، ولما التقت بطل همست في اذنه :

قد كان مـــا كلفته زمنا ... ياطلُّ من وجد بكم يكفي
حتى اتيـــك زائرا عجلا ... أمشى على حتف الى حتف

وغنت علية الابيات ، وتناقلت الجواري مانظمته ولحنته علية ، وتسامت كل هذه الاشياء الى مسامع الخليفة هرون الرشيد ، فغضب وحنق وآلى يمينا الا تكلم علية طلا ، والا تسميه باسمه ، فبكت علية فردوسها المفقود .

طل ولكني حرمت نعيمه ووصاله ان لم يغثني الله

واشفق الرشيد على اخته فوهبها طل ، ولكن العاطفة المتقدة التي كانت تحرق حياة علية، ابان كان طل في حوزة غيرها، مالبثت ان خبت، كانت تحبه يوم كانت لاتملكه ، كانت تحبه حينما كان صورة متموجه ، تراود الاحلام ، اما وقد ملكته ، فقد برمت به واجتوته ، فراحت تنشد الخلاص منه والتحرر من سلطانه .

وهكذا استعاضت عن حب طل بحب رشأ .

* * * * *

كان الفن الغنائي مقتصرا على الجواري ، ومنذ اليوم الذي مارست فيه علية بنت المهدي هذا الفن ،حررته من القيود الاجتماعية الرجعية، جعلت من الفن رسالة، رسالة يؤديها الانسان مهما كانت صفة طبقته، ومهما كانت سمة مجتمعه ، انه حقيقة، حقيقة تنشد لذاتها ، وهي اذا احبته وكلفت به ، فقد جعلت من قلبها وقود شعلته الخالده .



اسحق الموصلي

قليلون اولئـــك الرجال الذين توفرت لديهم المواهب التي توفرت لاسحق الموصلي ، فقد كان شخصيـــة موفورة متعددة الجوانب ، ضرب بسهم وافر في المعارف المتداولة في زمنه . كان اسحق الموصلي ، نظير اولئك «الانسكليبوديين» الذين عرفوا في القرن الثامن عشر . أحاط بكل شيء وألم بكل شيء ، حتى قيل : لقد (قل في الزمان نظيره) وصفه الاصفهاني بقوله (وموضعه من العلم ومكانه من الادب ومحله من الرواية وتقدمه في الشعر ، ومنزلته في سائر المحاسن أشهر من ان يدل عليها بوصفه) وقد بلغ اعجاب المأمون باسحاق الموصلي ، حداً بعيداً ، حتى قال : (لولا ما سبق على السنة الناس وشهر به عندهم من الغناء لوليته القضاء بحضرتي)، وروى جعفر بن قدامه ، ان اسحاق الموصلي ، سأل المأمون (ان يكون دخوله اليه ، مع أهل العلم والادب والرواة ، لا مع المغنين ، فاذا أراد الغناء غناه ، فأجابه الى ذلك ثم سأله بعد ذلك بمدة ان يكون دخوله مع الفقهاء ، فاذن له في ذلك ، فكان يدخل ويده في يد القضاة) ويروي المرزباني عن محمد بن عطية الشاعر قال (كنت عند يحي بن أكثم في مجلس له ، يجتمع اليه فيه اهل العلم ، وحضر اسحاق ، فجعل يناظر اهل الكلام حتى انتصف منهم ، ثم تكلم في الفقه فأحسن واحتج ، ثم تكلم في الشعر واللغة ، ففاق من حضر) ، ولعل اغرب ظاهرة من ظواهر اسحاق ، هذا الرجل الذي توفرت لديه كل هذه المواهب ، انه كان يمقت الغناء ويجنونه ، فقد كان يؤثر ان يضرب على ان يندب الى الغناء وينسب اليه ، هذا واسحاق الموصلي نال بالغناء ، ما لم ينل مثله ، غيره من المغنين والمطربين ، واستطاع ان يفوق الشعراء في ابتزاز اموال الخلفاء ، ولقد كان الغناء ، مهنة مبتذلة حقيرة في نظر اسحق ، ولكن وسطه ، ما كان يريد له الا ان يكون مغنيا ، بالرغم من مواهبه وبالرغم من مؤهلاته ، فقد اشتهر بين الناس ، بالمغني ، هو وابوه ، وكما حاول ابوه ابراهيم الفرار من مزاولة هذه المهنة ، كذلك كان حال الابن .

ولكن هذه المحاولة ، لم تغن اسحاق شيئاً ، ذلك لان وصمة الفن الغنائي، كانت تلاحقه ، وما كان في مقدور اسحاق ، ولا من كان على شاكلة اسحاق ، التحرر من هذه الوصمة ، فالخلفاء والامراء والسادة ، كانوا ينعمون بمباهج الفن ، ولكنه ما كان في مقدورهم ، حمايتـــه وحماية رجاله ، وتخطي التقاليد المتوارثة ، في رفع أربابه الى المركز الاجتماعي الذي يحلمون بـه ويصبون اليه ، مهما كانت مواهبهم ومهما كانت صفاتهم . فلما عرض اسحاق على المأمون ، السماح له بالجلوس بـين يديه ، مع رجال القضاء ، لم يجد المأمون مندوحة ، من شراء هذا الجلوس ، بمائة الف درهم .

وهكذا تبددت أحلام اسحاق ، في الجلوس مع القضاة في حضرة الخليفـة ، وزايلته تلك الامثال التي طالما سعى وراءها وجد إثرها ، فانطوى على فنه ، يبثه اماله الضائعة واحلامه الخائبة ، انطوى على هذا الفن الذي حمل خليفة مثل الواثق على القول (لو ان العمر والشباب يشترى ، لاشتريته لاسحاق، بشطر ملكي)، كما حمل الخليفة المتوكل على القول حينما مات اسحاق (ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته) . ومهما كان نصيب اسحاق الموصلي من وسطه الاجتماعي ، ومهما حاول هـــذا الوسط ، جحود ميزات اسحاق الفكرية ، فقد كان اسحاق فناناً عبقريا ، أوتي من روعة الصنعة ودقة الملاحظة ، ما يؤهله لان يكون فنان بلاط عصره . فقد تجلت روعة صنعته ، بالرغم من نبو صوته عن الوتر ، في تلك التحف الغنائية التي ما رددها ، الا وأخذت الناس عن انفسهم وشغلتهم عن ذاتهم ، فقـد روي ان اسحاق غنى مرة في حضرة الخليفة ، فصفق الغلمان ورقصوا ، وهم لا يعلمون ما يصنعون . وتجلت دقة ملاحظته الفنية ، في ادراكه موطن الضعف ، في فرقة موسيقية مؤلفة من عشرين مطربا وثمانين وتراً .

ولم تقف مواهب اسحاق الموصلي الفنية ، عند الاطراب وصوغ الالحان ونظم الاشعار ، بل تعدت هذا كله الى التأليف ، فقد وضع اسحاق الموصلي كتاباً عن عزة الميلاء ، ومعبد ، والرقص والزفن ، والنغم والايقاع ... وما الى ذلك من الآثار التي تجلت فيها عبقرية اسحاق المتعددة الجوانب .

* * *

كان اسحق الموصلي من اولئك الفنانين الذين يمجدون التراث الماضي ، ويرون فيه المثل الاعلى الخليق بالاتباع ، كما كان من اولئك الفنانين الذين ينكرون كل تغيير يدخل على هذا التراث ، مهما كان لونه ومهما كان شكله ، فناهض ابراهيم ابن المهدي، واضراب ابراهيم بن المهدي ، جاعلاً من نفسه الحارس الامين للغناء الكلاسيكي العربي ، فابن سريج والغريض ومعبد ، هم النموذج الحي ، للغناء العربي ، اما ما عدا هؤلاء ومن عاصر هؤلاء ، فليسوا غير مقلدين ، ولم يكن اسحق الموصلي ، يجد غضاضة في التقليد ، ذلك لان الفنان الذي يعتد بالقديم ويأخذ بأسباب القديم ، انما يتابع مجرى النظام الازلي للحياة ، وكل تمرد على هذا النظام ، فوضى عمياء ، لا تحقق الابداع ، فالقديم ، هو النظام ، هو القواعد التي تفرض على التعابير اسلوباً معينا ، والفنان الذي يتمرد على هذا النظام ، هو الفنان الذي يعوز روحه الانسجام ، ويفتقر الى القدرة الملهمة المعززة بالارادة المبتكرة ، التي تقيد الفن بالقواعد المقررة ، انه مخلوق ضعيف هزيل، وإذا كان في الحرية عبقرية، ففي النظام عبقرية ابعد مدى . ولم تكن فكرة اسحق الموصلي ، غريبة عن وسطه الاجتماعي ، وانما كانت امتداداً لهذا الوسط المحافظ ، الحريص على كلاسيكيته ، حرصة على وجوده ، فنال اسحق ومن سار على غرار اسحق من الفنانين ، حظوة لدى الخلفاء والطبقة الحاكمة ، لم يظفر بمثلها غيره ، فقد كان اسحق الموصلي ، يسعى بكل ما اوتي من قوة ، ليظفر انصار طريقته القديمة ، بصلات الخلفاء وجوائزهم ، كما كان شأنه مع علوية ، بحيث ان انصار هذه الطريقة ، أمثال محمد الرف وقلم الصالحية ... كانوا يتمتعون بحرمة ، لا يتمتع بمثلها انصار ابراهيم بن المهدي ، فاذا اضفنا الى ذلك العامل السياسي ، ادركنا ، نصيب الحركة الجديدة في الغناء العربي ، التي دعا اليها ابراهيم بن المهدي ، من هبات الخلفاء وعطفهم ، ولكن العصر ، كان عصر تجدد ، فقد يحافظ البلاط على التقاليد ، وقد يحرص على العنعنات ، وقد تجد الكلاسيكية لنفسها الانصار والاعوان ، غير ان التطور اللانهائي للفكر الانساني ، لا تقف في وجهه السدود ، ولا تحول دون انطلاقه القيود ، لقد كان اسحق الموصلي بمحافظته على القديم ، وانكاره لكل تبديل عليه وتغيير فيه ، يحاول وقف دولاب التاريخ ، وشل حركة ولدت تحت تأثير تطور

طبيعي، لفكر الانسان ومشاعر الانسان، حاول (تصحيح اجناس الغناء وطرائقه) املا منه بانقاذ الغناء القديم ، من موجة الجديد . فعل اسحق الموصلي هـذا كله ، ليجد وسيلة تمكن طريقته من مجاراة التطور التاريخي للعصر العباسي ، ولكن هذه الوسيلة ، مهما عمرت ومهما امتدت ، فليس في مقدورها الاستمرار دائماً وأبداً ، فما من شيء في هذا الوجود ، الا وهو نتيجة طبيعية لعصره ، نتيجة طبيعية ، لاوضاع اجتماعية وسياسية واقتصادية معينة ، وكل تبدل يطرأ على هذه الاوضاع ، يعقبه تبدل ، في أساليب التعبير ، لا بل في أساليب الحياة نفسها ، فالقواعد المقررة التي حاول اسحق الموصلي ، ان يلزم بها الغناء العربي في العصر العباسي ، كانت تحمل في ذاتها عناصر انحلالها، وبالرغم من العبقرية الغنائية التي امتاز بها اسحق الموصلي، فقد كان آخر شوط من اشواط حلبة القديم ، وآخر مرحلة من مراحل حركة لا سبيل الى امتدادها الابدي .

* * *

ولكن الامجاد التي سارت في مواكب اسحق الموصلي ، لم تدعه في نجوة من الاخطار التي كانت تهدد الفنانين في ذاك العصر ، فبالرغم من الحفاوة التي كان يلقاها اسحق الموصـلي ، لدى الخلفاء ، وبالرغم مـن أخذه باسباب الطريقة الكلاسيكية في الغناء ، هذه الطريقة التي استدعتها طبيعة الحكم ، وقضت بها تقاليد الخلافة ، فقد كان اسحق في كل لحظة مـن لحظات حياته ، عرضة للاذى وهدفاً للهلاك ، لا سيما في المواطن التي يتعرض فيها الى نقـد اولاد الخلفاء الذين أخذوا من الفن بسهم ، نظير ابراهيم بن المهدي ، فقد روى صاحب الاغاني ان ابراهيم بن المهدي ، كان يأكل المغنين اكلا ، حتى يحضر اسحق الموصلي، فيداريه ابراهيم ، ويطلب مكافأته ومعارضته ، ولا يدع اسحق يكبته ، وكان اسحق يكبته ، وكان اسحاق آفته ، كما ان لكل شيء آفة ، وله معه عدة مشاهد ، قال اسحق : كنت يوماً عند الرشيد : وعنده ندماؤه وخاصته ، وفيهم ابراهـيم بن المهدي ، فقال لي الرشيد : يا اسحق تغن :

شربت مدامة وسقيت اخرى   وراح المنتشون وما انتشيت

فغنيته فأقبل على ابراهيم بن المهدي ، فقال : ما اصبت يا اسحق ولا احسنت،

فقلت له : ليس هذا مما تحسنه وتعرفه ، وان شئت فغنه ، فان لم اجدك تخطىء فيه منذ ابتدائك الى انتهائك ، فدمي حلال . ثم اقبلت على الرشيد فقلت : يا امير المؤمنين : هذه صناعتي ، وصناعة ابي ، وهي التي قربتنا منـــك ، واستقدمتنا اليك ، واوطاتنا بساطك ، فاذا نازعناها احد بلا علم ، لم نجد بداً من الايضاح والذب فقال : لا غرو ، ولا لوم عليك ، وقام الرشيد لحاجة ، فأقبل على ابراهيم وقال : ويلك يا اسحق ؛ تجترىء علي وتقول ما قلت يا ابن ... ، فداخلني ما لم املك نفسي معه ، فقلت له : انت تشتمني ولا أقدر عـلى اجابتك ، وانت ابن الخليفة واخو الخليفة ، ولولا ذلك لقد كنت اقول لك : يا ابن ... ، كما قلت لي . قال اسحق : وعلمت ان ابراهيم يشكوني الى الرشيد ، وأن الرشيد سيسأل مـــن حضر عما جرى فيخبره ، ثم قلت له : انت تظن ان الخلافة تصير اليك ، فلا تزال تهددني بذلك ، وتعاديني كما تعادي سائر اولياء اخيك ، حسداً له ولولده عـلى الامر ، وانت تضعف عنـــه وعنهم ، وتستخف بأوليائهم تشبعا ، وارجو الا يخرجها الله تعالى عن يد الرشيد وولده ، وان يقتلك دونها ، وان صارت اليك والعياذ بالله ، فحرام علي العيش يومئذ ، والموت اطيب من الحياة معك ، فاصنع حينئذ ما بدالك .

فلما خرج الرشيد ، وثب ابراهيم فجلس بين يديه ، وقال يا امير المؤمنين : شتمني وذكر امي ، واستخف بي ، فغضب الرشيد وقال : ما تقول ويلك ، قلت : لا اعلم ، سل من حضر ، فأقبل على مسرور وحسين الخادم فسألهما عن القصة ، فجعلا يخبرانه ووجهه يربد الى ان انتهيا الى ذكر الخلافة ، فسري عنه ورجع لونه ، وقال لابراهيم : ما له ذنب ، شتمتة فعرفك انه لا يقدر على جوابك ، ارجع الى موضعك ، وأمسك عن هذا ، فلما انقضى المجلس وانصرف الناس امر الا ابرح ، وخرج كل من حضر ، حتى لم يبق غيري ، فساء ظني وهمتني نفسي ؛ فأقبل علي ، وقال لي : ويحك يا اسحق ، اتراني لا اعرف وقائعك ؟ قـد والله زانيته دفعات ، ويحك لا تعد ، ويحك حدثني عنك لو ضربك اخي ابراهيم ، اكنت أقتص لك منه ؟ فاضربه وهو أخي يا جاهل ، اتراه لو امر غلمانه ان يقتلوك فقتلوك ، اكنت اقتله بك ، فقلت : قد والله قتلتني يا أمير المؤمنين ، بهذا الكلام ، ولئن بلغه

ليقتلني ، وما اشك في انه قد بلغه الآن ، فصاح بمسرور الخادم وقال : عـلي بابراهيم الساعة ، وقال لي : قم فانصرف ، فقلت لجماعة من الخدم ، وكلهم كان لي محبا ، والي مائلا ، اخبروني بما يجري ، فأخبروني من غد : انه لما دخل عليه وبخه وجهله وقال له : لم تستخف بخادمي ؟ وصنيعتي ، ونديمي ، وابن خادمي ، وصنيعة ابي في مجلسي ، وتقدم علي وتضّنع في مجلسي وحضرتي ، تقدم على هذا وامثاله ، وانت مالك والغناء ، وما يدريك ما هو ؟ ومن اخذ لحنه وطارحك اياه ، حتى تظن انك تبلغ منه مبلغ اسحق ، الذي غذي به ، وهو صناعته ، ثم تظن انك تخطئه فيما لا تدريه ، ويدعوك الى اقامة الحجة عليك ، فلا تثبت لذلك ، وتعتصم بشتمه ، اليس هذا مما يدل على السقوط ، وضعف العقل ، وسوء الادب ، مـن دخولك فيما لا يشبهك ، ثم اظهارك اياه ولم تحكمه ، اليس تعلم ويحك ، ان هذا سوء رأي وادب ، وقلة معرفة ومبالاة بالخطأ ، والتكذيب والرد القبيح ؛ ثم قال له والله العظيم ، وحق رسوله الكريم - والا فانا نفي من ابي – لئن اصابـه سوء ؛ او سقط عليه حجر من السماء ؛ او سقط من دابته ؛ او سقط عليه سقف ، أو مات فجأة ، لاقتلنك به - والله والله والله وانت اعلم -- فلا تعرض له ، قم الآن فاخرج ، فخرج وقد كاد يموت ، فلما كان بعد ذلك ، دخلت عليه وابراهيم عنده ، فأعرضت عنـــه ، فجعل الرشيد ينظر الي مرة ، والى ابراهيم اخرى ، ويضحك ثم قال له : اني لاعلم محبتك لاسحق ، وميلك اليه ، والاخذ عنه ، وان هذا لا تقدر عليه كما تريد ؛ الى ان يرضى ، والرضا لا يكون بمكروه ، ولكن احسن اليه واكرمه ، وبره وصله ، فاذا فعلت ذلك ، ثم خالف ما تهواه ، عاقبته بيد منبسطة ، ولسان منطلق ، ثم قال لي : قم الى مولاك وابن مولاك ، فقبل رأسه ، فقمت اليه ، وأصلح بيننا .

دنانير

غلبت الاسطورة على حياة دنانير، كما غلبت على حياة كل فنانة، وافقت حدثا من احداث التاريخ الجسام، حيث يتالق نجمها في حين، ويخبو في حين آخر، وتمشي الامجاد في مواكبها تارة والمآسي تارة اخرى، فالحياة التي عاشتها دنانير، والنهاية التي آلت اليها دنانير، كانت كافية لان تنسج حولها، اسطورة من اروع الاساطير، فقد قدر لهذه الفنانة ان تعيش في قصر يحيي البرمكي، وان تحتل من قلبه مكانا لم تظفر بمثله جارية من الجواري، كما قدر لهذه القينة ان تحظى بعطف الرشيد، وان يخف الى قصرها الخليفة، ليتملى محاسنها ويستمع الى صوتها، وان يتعرض لتثريب لاهوادة فيه ينهال عليه من اهل بيته، كلما طرق منزل هذه القينة، وقد كان لكلف يحيي البرمكي بدنانير من ناحية، وميل الخليفة اليها من ناحية اخرى، والنهاية التي آلت اليها هذه الفنانة، المقيمة على الود الحريصة على العهد، بلى ان كل هذه الاشياء كان لها اثرها البعيد في خلود اسم دنانير، وامتداده من جيل الى جيل ومن عصر الى عصر.

لقد كانت دنانير الرمز الحي للوفاء، في زمن ما كان يتطلب من امرأة على شاكلتها، وفاء ابديا، يمتد مع العمر ويقيم ابد الدهر، في زمن ما كانت القينة فيه، غير متاع مشترك، تنتقل من رجل الى رجل، ومن بيت الى بيت، لا هم لها ولا غاية، الا ان تملأ العين والاذن، ولكن دنانير، ما كانت بالمرأة التي تقبل بان تعيش على هامش الحياة، كانت امرأة تشعر بوجودها، وهذا الشعور العميق، هو الذي سطر حياتها، فكتبت تاريخها بيدها، كما يكتبه كل انسان تنبع فضائله من قلبه، لا من وسط يملي عليه مشيئته، فيعيش حياة مصطنعة، حياة زاخرة بالنفاق الاجتماعي.

ولدت دنانير في المدينة، هذه الرقعة من الارض التي ظلت متمسكة بفضائل قيان العصر الماضي، هذه الفضائل التي رفعت من شأن القيان، وجعلت الخلفاء والامراء والسادة، يدلفون الى قصورها، كما يدلفون الى مكان له حرمته وله

قداسته ، فقد فرضت القينة في العصر الماضي وجودها على المجتمع الذي تعيش بين ظهرانيه ، كانت تعتد بشخصيتها وتعتز بكرامتها ،وهي اذ زاولت فن الغناء ، انما تزاول مهنة شريفة محترمة ، مهنة لها اثرها في الحياة الدنيا ، فلما هبطت دنانير بغداد ، كانت مزودة بكل هذه الفضائل العريقة الاصيلة ، فلم تبتذل نفسها ولم تمتهن كرامتها ، ولم تنس يحيى البرمكي ولا البرامكة ،بعد النكبة التي حاقت بهم ونزلت بساحتهم ، ذلك لان دنانير كانت تعتقد بانها مدينة ليحيى البرمكي بكل شيء ،فهو الذي شاد باسمها ورفع ذكرها ،وهو الذي مكنها من اصول الفن وقواعده ،فشقت طريقها في حاضرة ملك، تحفل بالقيان وتزخر بالجواري ،فتألق نجمها ،في فلك تدور فيه ، اروع كواكب الفن.

* * *

هبطت دنانير بغداد ، وهي لاتعرف من الفن الغنائي ، الا ذاك اللون القديم ، اللون الذي لم يعد بالامكان ، ان يتجاوب مع ما تناهت اليه الحضارة في العصر العباسي ؛ اللون الذي كان يسخر منه الفنانون ويعبثون به ؛ ويتطاولون على اولئك الذين يعتدون به ويأخذون باسبابه ؛ فقد كان النزاع بين القديم والجديد، غاية في الشدة والقوة والعنف ؛ فالذين يؤيدون القديم ؛ كانوا يحرصون كل الحرص ؛ على ان يظل التراث العربي ؛ محتفظاً بطابعه الاصيل ؛ لاسباب سياسية وغير سياسية ؛كان هؤلاء الانصار يرون ان بقاء السلطان العربي؛ مرهون باطراد بقاء تراثه ؛ وامتداد هذا التراث من الماضي الى الحاضر؛ومن الحاضر الى المستقبل ؛ والفن صورة معبرة عن هذا التراث والرمز التقليدي له ؛فاذا تبدل واتخذ لنفسه نماذج ؛ غير النماذج التي وضعها الاقدمون ؛ آذن هذا التبدل ؛ بتحول عميق شامل ؛ يتناول مختلف مظاهر الحياة ؛ وكان بمثابة ناقوس انقلاب؛ يدق ويجلجل؛ لقد كان هؤلاء الانصار ؛ يعتقدون بان التقاليد المتوارثة ؛ هي الركيزة التي تقوم عليها مقومات القومية لدى الشعوب ؛فهم اذ يدافعون عن الفن الغنائي القديم ؛ انما يدافعون عن مقومات قوميتهم التي اخذت تنصهر في قوميات مختلفة الاجناس متعددة العناصر ، والذين يؤيدون الجديد ، ويناهضون القديم ، كانوا يرون في القديم العربي ، صورة جامدة ميتة ، لا حياة فيها ولا مادة ، وكان معظم هؤلاء من غير العرب ، فلم تكن نزعتهم

التجديدية قائمة على اساس فكرة التطور التاريخي للانسانية ، وانما على اساس بتر كل صلة للمواطن العباسي ، بماضي العرب ، وما حفل به هذا الماضي من تراث ، كانوا يعوذون بهذه الخطة ، لانها سبيلهم الوحيد ، الى السلطان الذي فقدوه ، والمجد الذي اضاعوه ، فهم اذ يدعون الى الجديد ، انما يدعون الى انفسهم والى تراثهم الذي حقق وجوده في الحضارة العباسية . كانوا يعتقدون بان الحضارة العباسية ، هي من صنع ايديهم ، وليس من صنع ايدي العرب . فما على التراث العربي الا ان يقبع في الفيافي والقفار ، وما على الفنان الذي يحمل مشعل هذا التراث ، الا ان يختفي بصمت .

ولم يقف النزاع بين القديم والجديد ، عند ذاك النزاع الفكري ، الذي يقوم عادة بين طريقة وطريقة ، بل تعداه الى الفنانين انفسهم ، فقد ظهرت مدارس غنائية ، تسلك في طريقتها الغنائية ، مسالك متباينة ، فمن مدرسة يتزعمها ابراهيم الموصلي ، الى مدرسة يتزعمها ابراهيم بن المهدي ، ومن مغن ينتصر لهذا ، الى مغن ينتصر لذاك .

في هذا الوسط الذي تضاربت فيه النزعات الفنية ، ومن ورائها ، ذاك النزاع السياسي القومي ، الذي كان يدلف بسكون ، دون ان يخلف وراءه اي اثر اظل ، ويطل على الناس وعلى وجهه قناع ، يخفي حقيقته الحية ، اقامت الفنانة دنانير .

نشأت دنانير ، في معقل الغناء العربي القديم ، واخذت من هذا اللون من الغناء ما تأخذه كل فنانة عاشت في بيئة محافظة على التراث الغنائي ، الذي تناقلته الحقب وتداولته الاجيال ، كانت المدينة ، مدينة جميلة وسلامة وحبابه ، مدينة اللائي وضعن الدعامة الاولى في صرح الغناء العربي ، وكان مولاها حريصا كل الحرص ، على ان تنشأ جاريته ، نشأة كلاسيكية صافية ، فأدبها بادب الاوائل من المغنيات ، رواية الشعر واخبار العرب ، والنصب والحداء والمراثي ، وما الى ذلك من الالحان والمعارف ، التي تحدرت الى عصره ، ضمن نطاق طبيعة الوسط الذي يعيش فيه ، ولكن دنانير كانت تتمتع بميزات ارحب افقا من الوسط الذي عاشت تحت سمائه ، ودرجت فوق ارضه ، فقد كان من الصعب العسير ، على مواهب فنية نظير مواهب دنانير ، ان تتفتح في جو لم تتوفر لديه الانوار اللازمة والظلال الكافية ، لتزهر وتشع ، وتفيض على دنيا الفن ، بما حبتها به الطبيعة من عبقرية ، وما كان في مقدورها ان تتحرر من الارض الموثوقة بها

قبل ان تتحرر من مولاها ، انها امة ليس لهـــا من امر نفسها شيء ، فلما اشتراها يحيى بن خالد البرمكي ، شعرت بانها تحررت ، وبانها وجدت نفسها ، فالافق الضيق الذي حلقت فيه ورفت على جوانبه ، قد ولى ، وطواه الزمن في غياهب الماضي ، انها الآن في بغداد ، عاصمة الدنيا ، مجالس غنائية هنا وهناك ، في قصور الخلفاء ، ودور الامراء ، في البساتين المورقة ، وعلى الحراقات المنسابة فوق نهر دجلة ، فاين هذا كله من واحات المدينة ، ودورها وقصورها ؟ لقد كان كل شيء في هذه المدينة العظيمة ، يضيء ويفيض ، يوحي باسمى المشاعر ويوقظ العواطف ويلهب الخواطر ، انها الآن في الوسط الذي طالما حلمت بـــه ، انها جميلة وفتانة ، وهذا الجمال الذي انطوى عـلى نفسه في المدينة ، سينبثق هنا ، حيث يجد من يقدسه ويعبـده ، لا بين عامة الناس ، بل بين السادة ، الاثرياء والامراء ، حتى الخلفاء ، انها ستجد صورتها في كل عين وفي كل قلب . لقد كان شأن دنانير ، شأن كل غانية في هذه الحياة الدنيا ، تحلم بالحياة الناعمة الغضة ، التي تتفق مع ماحبتها به الطبيعة ، من فتنة في الصورة وفتنة في الصوت ، ولكن دنانير اذا وجدت لصورتها ، العيون التي ترنو اليها والقلوب التي تخفق بها ، كان عليها ان تجد لصوتها ذاك الصدى الرنان ، كانت دنانير تمثل في غنائها الطريقة القديمة ، فوصفت بانها (اروى الناس للغناء القديم) والقديم في بغداد ، مناهض يتجنون عليه ، وهي الآن في قصر امير من الامراء الذين يجدون في التمسك بالقديم ، مايتنافى مع احلام بيئته السياسية ، انه فارسي ، يدين بالطاعة للبيت العربي المالك ، ولكنـه حريص كل الحرص ، على التحرر من هذه الطاعة ، فهو اذا كان يظهر الولاء ، غير انه كان يعمل ، منذ قيام الدولة العباسية ، لاجل الخلاص من هذه الدولة ، فاذا قضت نشأة دنانير الاولى ، بأن تأخذ باسباب الغناء القديم ، فلا مكان لهذا القديم في قصره بعد اليوم . وراح يحيى البرمكي ، يعد دنانير اعدادا جديدا ، يعد مواهبها لتتفتح في الافق الفني الذي يريده والجو الذي ينشده ، ولم تكن غاية يحيى البرمكي من هذا الاعداد ، فنية خالصة لوجه الفن بقدر ما كانت سياسية ، كان يحيى البرمكي ، يهدف من وراء هذا الاعداد الجديد القضاء على التراث العربي القديم ، بدعوى ان المواهب المبدعة لاتجد مداها في القديم كما تجده في الجديد ، وان القديم لم يعد يصلح ليتابع مجراه في هذه الحياة الدنيا .

وهكذا كلف يحيى البرمكي، المغنية « بذل » من ناحية ، كما كلف ابراهيم الموصلي من ناحية اخرى ، باعداد دنانير .

* * *

وجدت دنانير في قصر يحيى بن خالد البرمكي، ما لم تجد مثله وهي في المدينة فقد انتقلت من حياة ضيقة محدودة ، الي حياة رحبة جديدة ، فبعد ان كانت فنانة مجهولة مغمورة ، اصبحت معروفة مشهورة ، تغني وتؤلف كتب الغناء ، وبعد ان كان سيدها رجلا عاديا ، اصبح سيدها وزيرا واميرا ، انها الآن ملء عين رجل ، ما كانت تحلم بطرق بابه ، انه يحبها ويؤثرها على غيرها ، فلماذا لاتخلص له ، لماذا لا تتفانى في هذا الاخلاص ؟

لقد حقق لها يحيى البرمكي ، كل ماتنشده المرأة، انها ترفل بالدمقس والحرير ، وتتحلى بالياقوت والمرجان ، ويخف اليها كبار المطربين والمطربات ، لتأخذ عنهم ويأخذوا عنها .

وان اسمها لينطلق في الارجـــاء ، وقد حفت به هالة من امجاد ، وها هو ذا الخليفة نفسه ، ها هو ذا الرشيد يأتي الى قصرها ويستمع الى غنائها ، فيزورها مرة وثانية ، وثالثة... فيجد في مجلسها ، ما لم يجد له مثيلا في مجالسه ، بين قيانه وجواريه وها هو ذا يهديها خاتما ، قدر ثمنه بثلاثين الف دينار ، فتثور حفيظة السيدة الاولى زوجة الخليفة ، فتعوذ بعماته ، شاكية عاتبة ، وتصل الشكوى الى مسامع الخليفة فيحزن ويغضب ، ويكظم غيظا مريرا ، فقد كان يحب دنانير ، حبا مهما ذهب المؤرخون في تصوره وتصويره ، فقد كان من القوة ، بحيث انه كان من العسير على الخليفة تجاهله . وحاولت السيدة الاولى ، صرف زوجها عن دنانير ، فاهدته اجمل جواريها وافضل قيانها ، ولكن ما امله ما لبث ان خاب ، فقد ظل الرشيد يرنو بانظاره الى دنانير .

وهكذا تألبت ضد دنانير ، قوى عنيفة مبيدة ، قوى تلفظ الحمم في قصر البيت المالك ، وتقذف باللهب خارج هذا القصر ، في دور القيان والجواري اللائي نهش الحسد قلوبهن ، وفي مجالس المطربين الذين كانوا يناهضون طريقة ابراهيم الموصلي الغنائية ، التي حذت دنانير حذوها ، وسارت على غرارها ، فكانت صداها الرنان

في المجالس والمحافل .

وما كانت هذه المواقف ، الا لتضاعف من تعلق دنانير بالبيت البرمكي ، فقد كانت تعلم علم اليقين ، بأن اسمها مرهون باسم هذا البيت ، فلما حلت النكبة به ، تداعت وانهارت ، فزايلت القصر الذي قضت فيه اجمل ايام حياتها ، زايلته لتعيش وحيدة فريدة ، لتعيش بماضيها الحافـــل بالذكريات الحلوة العزيزة . وما كانت دنانير بالمرأة التي ينساها الناس ، بالمرأة التي يطويها الزمن ، كما تطوى صفحة مهملة خاملة ، فقد احيت نكبة البرامكة ، الامل في نفوس عدد كبير من اولئك الذين كانوا يحلمون بدنانير ، فخفوا اليها يطلبون يدها ، ولكنها رفضت الزواج من احد وآثرت البقاء في زاوية منسية ، عـلى الحياة في القصور العاجية ، كان مـاضيها من الغنى ، بحيث انه فاض على حاضرها ومستقبلها ، ومن خلال ايامها القاتمة ، كان يطل عليها هذا الماضي بوجهه المشرق ، فترنو اليـــه ، وتتوسد ذراعه ، وتنام ، وتنام والذكريات تمر امامها تباعا ، كما لو انها حقيقة حية ولاجل هذا ، ولاجل هذا فقط رفضت دنانير الزواج من احد ، ولاجل هذا ، ولاجل هذا فقط ، رفضت دنانير الغناء بين يدي الرشيد ، بعد نكبة البرامكة ، وهي العليمة بمكانها من قلب الرشيد وبأن هذا الرفض سيطوي اسمهـــا الى الابد .

الموشحات الاندلسية

لم يقطع العرب في الاندلس ، صلتهم بالشرق ، بالرغم من العداء المكين القائم بين قرطبة وبغداد ، وبالرغم من الحقب الطوال التي قضوها في الفردوس المفقود ، فقد ظلت الصلات الفكرية قائمة بين الشرق والغرب كما ظل التجاوب الثقافي ، مطرداً ومستمراً ، لا تقف أمامه التخوم ولا تحول دونه المسافات الشاسعة ، ولا الآماد الواسعة ، فقد كان أهل الاندلس يقومون برحلات الى المغرب العربي ، ومصر ، والشام ، والعراق ، والحجاز وما الى ذلك من الاقطار العربية ، كانوا يفعلون ذلك ، لا بقصد التجارة وزيارة البلاد المقدسة فحسب ، وانما بقصد التعرف الى الارومة الاولى ، الى تلك البقاع التي انبثق منها فجر العرب الاول ، هـذا الفجر الذي امتد، فشمل معظم ارجاء العالم القديم، فقد خف من الغرب الى الشرق، علماء وشعراء ، نظير الشيخ الاكبر محي الدين بن عربي ، الصوفي المعروف صاحب نظرية وحدة الوجود ، كما خف من الشرق الى الغرب ابو علي القالي صاحب كتاب الامالي ، فقد استقبل هذا الكاتب العربي كما يستقبل الامراء ، اذ امر الناصر ابنه الحكم بالذهاب على رأس وفد من وجوه الرعية لاستقباله ، وما يقال عن ابي علي القالي يقال عن غيره من الكتاب والشعراء الذين اموا الاندلس من الشرق ، الامر الذي أدى الى تعانق الافكار وتجاوب المشاعر ، لا في ميدان الادب والفكر فحسب بل في ميدان الغناء أيضاً .

كان لا يطرأ من المشرق مغن الاسأل من يقصد ، فيدل على عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب ، فمن وصله منهم ، استقبله بصنوف الاكرام ، وكساه وخلطه بنفسه ، ولم يدعه الى أحد من الناس ، فلا يزال معه في صبوح وغبوق ، وهو يجدده كل يوم كرامة ، حتى يأخذ جميع ما معه من صوت مطرب أو حكاية نادرة .

ويقول صاحب نفح الطيب ان عبد الوهاب بن الحسين ، دخل عليـه بعض

غلمانه وقد أخذ في الطعام والشراب والغناء، فقال له : بالباب رجل غريب عليه ثياب السفر، فامر بادخاله، فاذا رجل اسمر، فسلم عليه قال اين بلد الرجل، فأجاب البصرة. فرحب به، وأمره بالجلوس، فجلس مع الغلمان، وأتي بطعام فأكل وصفّت أقداح، ودار الغناء في المجلس، حتى انتهى الى اخرهم، فلما سكتوا اندفع الضيف يغني، فطرب عبد الوهاب وصاح وتبين الحذق في اشارته، وقال يا غلام خذ بيده الى الحمام، وعجل علي به، فأدخل الحمام ونظف، ثم دعا عبدالوهاب بخلعه من ثيابه، فالقيت عليه ورفعه فأجلسه عن يساره، فغنى له.

قومي امزجي التبرة باللجين واحتملي الرطل باليدين
واغتنمي غفلة الليالي فربما ايقظت لحين

فطرب عبد الوهاب وشرب واستزاد فغناه.

وانت الذي اشرقت عيني بمائها وعلمتها بالهجران تهجر الغمضا

ولم يزل هذا الضيف عنده مقرباً مكرماً. وعلى نحو هذه الحال، كان يفعل بكل طارىء يطل من المشرق. وهكذا نمت الحضارة العربية في الاندلس، فانجب الفردوس المفقود، فلاسفة نظير ابن رشد، وشعراء مثل ابن زيدون، وشاعرات كولادة بنت المستكفي، وكتاب كابن عبد ربه، ثم أضفت العبقرية العربية على الشعر العربي لوناً جديداً من الوانه الحلوة الرقيقة البراقة، وهذا اللون هو الموشح، ففي القرن الثالث للهجرة تالق نجم الشاعر (مقدم بن عافر) هذا الشاعر الذي ابتكر أول موشح في تاريخ الادب العربي، ثم جاء بعده ابن زهر وابن بقي، وابن باجه، وابن سهل، والمريني وغيرهم من الوشاحين. وخدم الموشح الغناء بان وضع نفسه بين يديه، بحيث ان كلمة الموشح باتت مرادفة لكلمة الغناء.

كان الموشح نتيجة من نتائج التطور الذي طرأ على الشعر العربي في بلاد الاندلس هذا التطور الذي كان وليد عاملين، عامل الطبيعة وعامل الحضارة، فقد أوحت الطبيعة الى الشاعر الاندلسي، الاحساس بالجمال، فصور الوديان والغدران والوهاد والانجاد، والبر والبحر والارض والسماء، وأضفى على كل ما صوره ابهى حلة وأجمل زينة، ثم افتن فيما ابتكره، فغلب التصور والخيال، على الحقيقة وواقع

الحال ، ونحن اذا القينا نظرة على مصدر كلمة التوشيح نلاحظ انها مرادفة للبهرجة والزينة ، فقد جاء في لسان العرب ان الوشاح ، هو حلي النساء وان الوشاح اديم عريض يرصع بالجواهر ، وقد أشار ابن خلدون في مقدمته الى الصلة القائمة بين التوشيح ، والبهرجة والزينة ، حينما قال (اما أهل الاندلس فقد كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم ، فنا منه سموه بالموشح) .

اما عامل الحضارة فقد كان نتيجة من نتائج التقدم الفكري الذي وصل اليه عرب الاندلس. فالفكر العربي في هذه البلاد لم يعد يجد في الاوزان العربية الستة عشر بحراً ، ما يتجاوب مع تطوره المتلاحق ، والقافية الواحدة المقررة ، قيدت الانطلاق ، وكبلت الابداع، وعطلت المدارك ، لا سيما في حالات التلحين والغناء، فكان لا بد والحالة هذه ، من تجدد في أساليب الشعر ، تجدد يتمشى مع أفكار العرب في الاندلس ، كما يتمشى مع مشاعرهم ، فكان من جراء هذا ، ان ابتكر الشاعر العربي الاندلسي ، ضرباً جديداً من ضروب الشعر ، فابدع الموشحات ، وهكذا جدد العرب في الاندلس الشعر مبنى ومعنى ، ثم الفوا بينه وبين الموسيقى فجعلوا من الموشح قطعة شعرية غنائية ، فعادوا بذلك بالشعر والغناء الى وحدته الاصلية ، هذه الوحدة التي طالعنا آثارها في نشأة الفنون ، إبان كان الشعر والغناء والرقص ، تؤلف ، كلا موحداً ، وقد أشار ابن سناء الملك في كتابه دار الطراز الى هذه الوحدة العميقة حيث قال ، (ليس للموشحات من عروض الا التلحين ، ولا ضرب الا الضرب ولا أوتار الا الملاوى ، وأكثرها مبني على الارغن) من هنا يتضح لنا ان الوشاح الاندلسي لم يسلك طريقة الشاعر القديم ، في حالة تلحين قصائده ، وانما سلك طريقاً جديداً ، يتمشى مع الغاية المقصودة من نظم التوشيح . كان التلحين فيما مضى ، هو الذي يتلو القصيدة ، بحيث ان الالحان كانت ترافق القصائد ، اما في التوشيح فقد كان الحال ، على خلاف هذا تماماً ، كان التوشيح هو الذي يرافق اللحن ، يضع الملحن قطعته الغنائية ، ويأتي الوشاح وينظم توشيحا

يتمشى مع وزن التلحين ، ومن هنا ندرك سر تلك الكلمات المبهمة الغامضة ، التي تضمنتها بعض الموشحات ، هذه الكلمات التي لم تكن الغاية الحقيقية منها ، الا ايجاد وزن شعري مستقيم ، يتجاوب في وحدته العددية مع الايقاع الموسيقي .

وهكذا نشأ في الاندلس نوع جديد من الشعر العربي ، نوع لا يتقيد بالاوزان الشعرية المعروفة ولا بالقافية الواحدة ، وانما يمضي حراً طليقاً ، لا رسوم له ولا تخوم ، وقد حاول ابن سناء الملك حصر اوزان الموشحات فاخفق (قال وكنت أردت ان اقيم للموشحات عروضاً يكون دفتراً لحسابها وميزاناً لأوتارها ، فعز ذلك وأعوز ، لخروجها عن الحصر وانفلاتها عن الكف) .

ويتألف الموشح كما يقول ابن سناء الملك (من ستة اقفال على الاكثر ، ويقال له التام وفي الاقل من خمسة اقفال وخمسة أبيات ، ويقال له الاقرع ، فالتام ما ابتدىء فيه بالاقفال والاقرع ما ابتدىء فيه بالابيات) .

وتعددت قوافي الموشح حتى بلغت العشرات ، فقد وجد الوشاح الاندلسي ، ان القافية الواحدة لا تترك وراءها غير جرس رتيب ، جرس تعافه الاذن ، لانطلاقه على نحو واحد ، فما كان منه الا ان حرر نفسه من هذه القيود الكلاسيكية ، هذه القيود التي طالما خنقت الافكار ووأدت المشاعر ، وخلقت التكلف بادي المعالم ، في قصائد لا تحصى ولا تعد ، لقد نشد الوشاح من وراء الموشح ، الانطلاق من القيود ، والتحرر من الاوزان المتداولة والقافية الموحدة ، فكان يضع كما يقول صاحب الذخيرة (اكثر الموشحات على غير اعاريض الشعراء ، وعلى اشطار ، كما ان اكثرها كان على الاعاريض المهملة غير المستعملة ، وأخذ اللفظ العامي والعجمي ، وسماه المركز ووضع عليه موشحه ، دون تضمين فيه ولا اغصان) .

الى جانب تحرر الوشاح من الاوزان القديمة والقافية القديمة ، فقد راح يتحرى عن السهولة من نظم موشحاته ، هذه السهولة التي لاقت قبولا من الناس (الخاصة والكافة) كما يقول ابن خلدون لا بل ان رجلا ، نظير ابن حرمون اعتبر السهولة من شروط الموشح الاصلية فقال (ما الموشح بالموشح حتى يكون عاريا عن التكلف) .

اما أثر الموشحات في الاندلسيين فقد كان عظيما جداً ، نظم ابو بكر ابن باجة

موشحا مدح فيه امير سرقسطة والقاه على قيناته :

جرر الذيـل ايما جر   وصل الشكر منك بالشكر

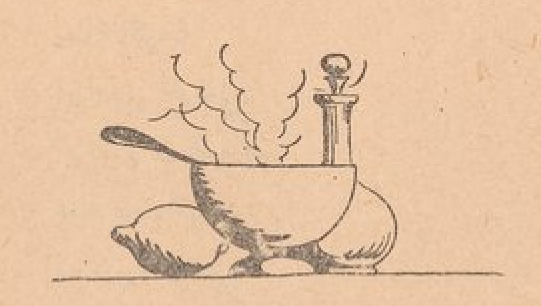
فطرب الامير ولما وصل الى

عقد الله آية النصر   لامـير العلا ابي بكر

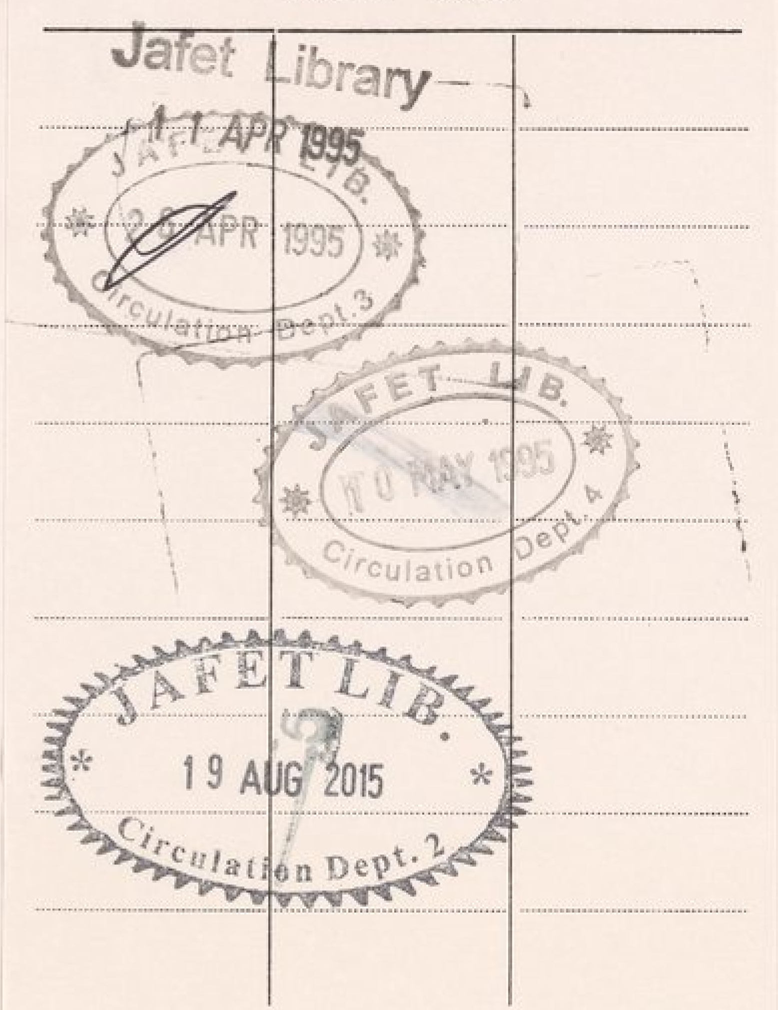
حلف الامير الايمـان المعظمة لا يمشي ابن باجة الى منزله الا عـلى الذهب ، وخاف ابن باجة سوء العاقبة فاحتال ان جعل في نعله ذهبا .

* * *

وهكذا وجد عرب الاندلس في الموشحات ، الرمز الحي لفنهم الغنائي ، فقـد أودعوا هذا الفن ، تلك المرائي الخالدة من جمال طبيعـة الاندلس ، بحيث ان الموشحات ، كانت في الحقيقة صورة معبرة عن تلك المرائي ، صورة حافلة بالرؤى والظلال ، والالوان والاشكال ، صورة نطالع فيها الطبيعة ، وهي تموج وتمور . كما أودعوا هـذا الفن ، فيض مشاعرهم المرهفة ، هذه المشاعر الرقيقة الحساسة ، التي كانت تنطلق، على همس الشكوى وبث النجوى، فتنثر الزهر وتعبق بالعطر . ومن هذه المشاعر وتلك المرائي ، تألقت أنوار الموشحات .



فهرست الكتاب


DATE DUE
Jafet Library
11 APR 1995
JAFET LIB.
28 APR 1995
Circulation Dept. 3
JAFET LIB.
10 MAY 1995
Circulation Dept. 4
JAFET LIB.
19 AUG 2015
Circulation Dept. 2

